سلسلة
دراسات نفسية إسلامية
(١)



اعداد
الدكتور سيد عبد الحميد مرسى

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـــة الأولى

ربيع الأول سنة ١٤٠٢هـ ـــ يناير سنة ١٩٨٢م

مطبعة
دار التراث العربي



« ونفس وما ســـواها • فألهمها فجورها وتقواها » ••

(صدق الله العظيم)

(الشمس : ٧ ، ٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

وبعد ...

القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمتعبد بتلاوته والمتحدى به الانس والجن والعالمين ...

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . (الاسراء : ٨٨)

وفى القرآن اعجاز لا يتنبه اليه العقل الا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه فى حقائق الكون وأسراره .. حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه اعجاز أخرى أو جديدة تزيد فى معنى الاعجاز . ان القرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق .. ذلك أن القرآن للعالمين ، أى للدنيا كلها ، فلا يقتصر على أمة بعينها ، وانما هو الدين الكامل لكل البشر .. ومن هنا فانه يجب أن يكون له عطاء لكل جيل ، والا لو أفرغ القرآن عطاءه الاعجازى فى قرن من الزمان مثلا لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء ، وبذلك يكون قد جمد .. والقرآن متجدد لا يجمد أبدا ، سخى يعطى دائما ، قادر على العطاء لكل جيل بما يختلف عن الجيل الذى قبله[1] .

أين يضع القرآن الكريم « الانسان » فى هذا القرن الذى تعددت فيه النظريات والآراء والمذاهب والعقائد ، تتصارع كلها وتدعى السعى الى تأمين الرفاهية والسعادة للمجتمع ؟

ما مكان الانسان من الكون كله ؟ ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين

---

(١) محمد متولى الشعراوى ، **معجزة القرآن** . (كتاب اليوم ، ١٩٧٧) صفحة ٤٣ .

كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان « الانسان » ؟

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانســان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول •• تجمع له زبدة الثقــة بعقله ، وزبدة الثقــة بالحيــاة •• حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان ••

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريدهــا على غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على ســواه ••

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير اليها •• وسبيلها جميعا أن تهتدى الى قبلة واحدة : تنظر اليها فتمضى قدما ، أو تفقدها فى الأفق فهى أشــلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجســم المشدود بين مفارق الطريق ••

مكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة ، وفى ميزان الفكر ، وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات •• هو « الكائن المكلف » ، الذى يفكر ، ويعقل ، ويبصر ، ويتدبر ••

ويتميز القرن العشرون بلون خــاص من المعرفة ، هو المعرفـــة « السيكولوجية » (النفسية) • وقد يقال ان العلوم الطبيعية قد أحرزت أروع أنواع التقدم ، ولكن هذا التقدم لا يخــرج عن كونه تطبيقا لأساليب البحث المعروفة • أما الاتجاه الذى ظهر فى عصرنا الحديث نحو دراسة الطبيعة البشرية والخبرة الانسانية فهو اتجاه جديد •

ولم يكن من الممكن أن يظهر هذا الاتجاه قبل الأوان ، فلم يكن ثمة بد من أن يسبقه اعداد طويل المدى ويهيىء له • فهناك ميقات لكل علم ، ولابد لكل علم من أن ينتظر حتى تحين ساعة ظهوره ، واليوم تدق الساعة ايذانا ببزوغ نجم علم النفس ، وظهور لون جديد من ألوان الاستنارة والمعرفة ، وقد انتشر وعمت دراساته وتطبيقاته شتى مجالات الحياة •

وعلينا أن نؤكد هنا أن ميادين الاهتمام التى يبحثها هذا العلم الحديث ميادين معروفة منذ القدم • غير أن دقة البحث فيها ظاهرة

جديدة •• فقد بدأت تخضع لقواعد المنطق وأسلوب البحث العلمى •
وقد ساعدنا الاتجاه الجديد نحو الدقة العلمية فى ميدان البحث السيكولوجى على أن نزداد بصيرة بشئوننا ، ونستعين بذلك على النهوض بمستوى حياتنا • كما ترتب على هذه الدقة ظهور أفكار جديدة لها سلطانها وقوتها تساعدنا على اعادة تشكيل حياتنا وتنظيمها[1] •

لقد قام الانسان — ارضاء لكبريائه وتحقيقا لذاته — ببناء عالم مادى يفوق فى حقيقته وواقعه الأحلام التى وردت فى الأساطير • فقد استجمع تحت سيطرته طاقات طبيعية وسخرها لخدمة الجنس البشرى بحيث توفر له الظروف المادية الضرورية لاستمرار الانتاج • وعلى الرغم من أن الكثير من أهدافه لم تتحقق بعد ، فيمكن القول بأنها فى متناول يده ، وأنه فى طريقه المؤدى الى حل مشكلاته المادية الانتاجية • والآن يشعر الانسان لأول مرة فى التاريخ بأن موضوع توحد الجنس البشرى وغزو الطبيعة من حيث استغلال طاقاتها لصالح الانسان ، لم تعد حلما بل حقيقة واقعة •

وعلى الرغم من ذلك يشعر الانسان بالقلق والحيرة •• فهو يكد ويعمل ويكافح ، ولكنه يدرك عدم جدوى ما يقوم به من نشاط •• ففى ذات الوقت الذى تزداد فيه سيطرته على القوى والطاقات الطبيعية ، فانه يشعر بأنه لا حول له ولا قوة ازاء حياته كفرد وكعضو فى مجتمع • فبينما هو يستنبط وسائل جديدة للسيطرة على القوى الطبيعية ، فقد أصبح أسير هذه الوسائل التى استحدثها ، وفقد الرؤيا التى لها دلالتها بالنسبة لنتيجة هذه الأعمال — ألا وهى « الانسان ذاته » • ففى الوقت الذى أصبح فيه مسيطرا على القوى الطبيعية ، نراه قد أصبح عبدا للآلة التى بناها أو صممها بنفسه • وعلى قدر علمه ومعرفته بالمادة وخصائصها ، فانه جاهل أشد الجهل فيما يختص بالسؤال المتعلق بالوجود الانسانى ، ألا وهو : ما هو الانسان ، وكيف ينبغى أن يعيش ، وكيف يمكن الاستفادة من الطاقات الهائلة الكامنة فيه من أن تستخدم بكفاءة وفعالية •

---

(١) هـ . أوفر ستريت ، **العقل الناضج** • ترجمة عبد العزيز القوصى والسيد محمد عثمان • (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧) ، صفحة ٩ ، ١٠ .

فما هو طريق الخلاص اذن ؟ ليس هناك من طريق سوى الرجوع للحق الكامن فى القيم والمبادىء الأخلاقية المستمدة من الشريعة الاسلامية .. فهذه الشريعة الاسلامية السمحة قد أرست قواعد القيم الأخلاقية ، وحثت على اتباعها ، وأن نتبع الحق والعدالة والأمانة والرحمة والبر والتعاون فى تعاملنا بعضنا مع البعض الآخر . ويكفى للتدليل على ذلك ، أن الخالق سبحانه خاطب نبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام — وهو رسول الانسانية والمثل الذى يحتذى فى الأخلاق الكريمة والذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، قائلا : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ..** »(آل عمران : ١٥٩) .

❊ ❊ ❊

وبعد ...

فى اطار ما سبق ذكره ، وتأثرا بمبادىء الدين الاسلامى الحنيف ، ومن خلال الدراسات النفسية لأكثر من ثلاثين عاما .. قام الكاتب باستخلاص مجموعة من الآيات القرآنية التى اختصت « بالنفس البشرية » بوجه خاص ، والمبادىء الانسانية بوجه عام . وقد استخرج هذه الآيات من المصحف المفهرس ، ثم ردها الى أصلها فى المصحف الشريف وكتب التفسير ، فاستخلص معانيها ، وصنفها الى أنماط مختلفة من الناحية النفسية .. كالنفس المطمئنة ، والنفس البارة ، والنفس اللوامة ، والنفس الكادحة ، الى غير ذلك من النفوس ، لتصدر فى سلسلة يقوم باعدادها بعنوان « دراسات نفسية اسلامية » ، بحيث يفرد لكل منها كتاب مستقل . ورأى الكاتب أن يبدأ السلسلة « بالنفس البشرية » وكانت حصيلة هذه الدراسة أن أعد هذا الكتاب ، بجهده المتواضع ، « **وما أوتيتم من العلم الا قليلا** » (الاسراء : ٨٥) .. « **وفوق كل ذى علم عليم** » (يوسف : ٧٦)

وقام الكاتب بعرض نتائج هذه الدراسة المتعلقة بالنفس البشرية فى خمسة فصول .. الفصل الأول : « الانسان .. خلقه وتطوره » . يناقش خلق الانسان منذ بدء الخليقة .. واستهله بسورة « الانسان » وتفسيرها ، ثم أبرز المفاهيم الانسانية التى اتضحت من التفسير : كالنمو والتطور والادراك والتفكير ، والمثير والاستجابة ، والمعرفة ، وناقشها من وجهة النظر النفسية . وانتقل بعد هذا الى مناقشة نشأة الانسان وتطوره ، مسترشدا بالآيات القرآنية الكريمة فى هذا المجال .

وناقش بعد هذا انسانية الانسان ، والانسان والمجتمع ، من خلال المبادىء الاسلامية كما وردت فى القرآن الكريم •

واختص الفصل الثانى بـ« خصائص النفس البشرية » •• فبدأ بفطرة الانسان كما وردت فى الآيات القرآنية الكريمة والحديث النبوى الشريف ، ثم ناقش خصائص النفس البشرية مبتدئا بوجهة نظر « الغزالى » • وناقش طبيعة الكائن البشرى وخصائصه •

واستهل الفصل الثالث بشرح الآية الكريمة **« ونفس وما سواها »** والآيات المرادفة • وانتقل من التفسير الى مناقشة المفاهيم النفسية التى وردت فى الآيات القرآنية الكريمة أو فى تفسيرها وهى : الاستعدادات ، والسلوك الفطرى والسلوك المكتسب ، والتفكير والادراك والتذكر ، والأنا الأعلى ، والتوجيه والاختيار ، والثواب والعقاب ، والانسان المركب ، والانسان المحقق لذاته ، والفروق الفردية •

واختص الفصل الرابع بدراسة « السلوك الانسانى » •• فاستهل الكاتب الفصل بعرض وجهة نظر « الغزالى » فى السلوك وناقشها ، ثم استشهد بالآيات التى تحث على حسن السلوك ، فعرض الآيات والأحاديث التى تبرز الأخلاق الفاضلة فى المجالات الآتية : الوسطية والاعتدال ، وحسن الخلق ، والتواضع ، والصدق ، والأمانة ، والشكر ، والحلم والأناة والرفق ، والمحبة ، والجود والكرم ، وحفظ اللسان • وانتقل الكاتب بعد هذا الى مناقشة ديناميكية السلوك ، والمميزات السلوكية للشخصية السوية ، ووجهات النظر الخاصة بمعالم الشخصية السوية ••

وفى الفصل الخامس — « الخاتمة » — أورد تصنيفا للنفس البشرية مشتقا من الآيات القرآنية الكريمة يتلخص فى الآتى : النفس المطمئنة ، والنفس اللوامة ، والنفس الزكية ، والنفس المجادلة ، والنفس الملهمة ، والنفس الأمارة بالسوء ، والنفس المهتدية ، والنفس الشاكرة ، والنفس المجاهدة ، والنفس الصالحة ، والنفس الشحيحة ، والنفس الخيرة • وانتقل الكاتب الى ابراز العقائد الاسلامية التى طلب الاسلام الايمان بها ، ثم اختتم المناقشة بتوضيح وضع الانسان فى نظر الاسلام ، حيث ان الاسلام يرى أن الانسان ذو حرية واختيار فى حياته ، مستشهدا بالآيات القرآنية التى نصت على ذلك •

والمغزى من الكتاب أن القرآن الكريم يتحدى كل القوى المختارة التى ميزها الله بقدرة العقـل والفكر والاختيار • فالعـلم الحديث — كما سبق أن ذكرنا فى صدر هذه المقـدمة — بقدر ما حقق من تقدم أدى الى سيطرة الانسان على القوى والطاقات الطبيعية وتسخيرها لخـدمته ، فانه لا يزال قاصرا عن فهم مكونات النفس البشرية التى خلقهـا الله — سبحانه — وأودع فيها ما شاءت قدرته من عقل وفكر ، وسخر لهـا ما فى السموات والأرض ••

والله ولى التوفيق ••

جدة : ذو القعدة ١٤٠١ هـ
أكتوبر ١٩٨١ م

سيد عبد الحميد مرسى

الفصل الأول

الإنسان .. خلقه وتطوّره

خلق الانسـان :

« هل أتى على الانسـان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا • انا خلقنـا الانسـان من نطفة أمشاج نبتليـه فجعلناه سميعا بصيرا • انا هدينـاه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (الانسان : ١ ـ ٣) •

هذا الاستهلال انما هو للتقرير ، ولكن وروده فى هذه الصيغة كأنما ليسأل الانسـان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهـر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟ ثم ألا يفعل تدبرهـا فى نفسه شيئا من الشعور باليد التى دفعته الى مسرح الحياة وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئا مذكورا ؟ •• انها ايحاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام فى هذا المقام • وهى ايحاءات رفيقة وعميقة تثير فى النفس تأملات شتى :

فواحدة منها تتجه بالنفس الى ما قبل خلق الانسـان ووجوده ابتداء • يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الانسان • كيف تراه كان ؟ •• والانسـان مخلوق مغرور فى نفسه وفى قيمته ، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأزمان طوال • ولعل هذا الكون لم يكن يتوقع خلق شىء يسمى « الانسـان » •• حتى انبثق هذا الخلق من ارادة الله فكان ! ••

وواحدة منها تتجـه الى اللحظة التى انبثق فيـها هذا الوجود الانسـانى ، وتضرب فى تصـورات شتى لهذه اللحظـة التى لم يكن يعلمهـا الا الله ، والتى أضافت الى الكون هذه الخليقة الجديدة ، المقدر أمرهـا فى حساب الله قبل أن تكون ، والمحسوب دورها فى خط هذا الكون الطويل ••

وواحدة منها تتجه الى تأمل يد القدرة وهى تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجـــود وتعد لدوره ، وتعد له دوره ، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ، وتهيىء له الظروف التى تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ، وتتابعه بعد ذلك فى كل خطوة ، ومعها الخيط الذى تشده به اليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير ..

وايحاءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص فى الضمير .. ينتهى منها القلب الى الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، وفى المنشأ وفى الرحلة وفى المصير ..

فأما امتداد هذا الانسان بعد ذلك وبقاؤه ، فكانت له قصة أخرى :

« انا خلقنا الانســـان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنـــاه ســـميعا بصيرا » ..

فالأمشاج هى الأخلاط .. وربما كانت هذه اشارة الى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الوراثـــات الكامنة فى النطفة ، والتى يمثـــلها ما يسمى علميـــا « الجينات » ، وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الانسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا . واليهـــا يعزى سير النطفة الانســـانية فى رحلتها لتكوين جنين انسان ، لا جنين أى حيوان آخر . كما تعزى اليها وراثة الصفات الخاصة فى الأسرة .. ولعلها هى هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج ، لا عبثا ولا جزافا . وانما خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر . والله سبحانه وتعالى يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن تترتب عليه آثار المقدرة فى كيان الوجود ، وأن تتبعه آثار المقدرة ، ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله سميعا بصيرا .. أى زوده بوسائل « الادراك » ، ليستطيع التلقى والاستجابة ، وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليهـــا ويختار ، ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار .

واذن فان ارادة الله فى امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التى قدرهـــا ، وهى خلقته من نطفة أمشاج .. كانت وراءها حكمة .. كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره .. ومن ثم وهب الاستعداد

« للتلقى والاستجابة » و « المعرفة » ، و « الاختيار » •• وكان كل شيء فى خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه فى الحياة •• بمقدار !

ثم زوده الى جانب المعرفة ، « بالقدرة على اختيار الطريق » ، وبين له الطريق الواصل ، ثم تركه ليختاره ، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طريق لا تؤدى الى الله « الخير والشر » :

« انا هديناه السبيل ، اما شاكرا واما كفورا » ••

وعبر عن الهدى بالشكر ، لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدى ، بعد اذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا ، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا •• فوهب له السمع والبصر ، وزوده بالقدرة على المعرفة ، ثم هداه السبيل ، وتركه يختار •• الشكر هو الخاطر الأول الذى يرد على القلب المؤمن فى هذه المناسبة ، فاذا لم يشكر فهو الكفور •

ويشعر الانسان بجدية الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث : ويدرك أنه مخلوق لغاية ، وأنه مشدود الى محور ، وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها ، وأنه هنا ليبتلى ويجتاز الابتلاء • فهو فى فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا فترة لهو واهمال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيقة العميقة • كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار فى تصور هذه الحياة ، وفى الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظرته الى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمتها بوجه عام(١) •

ويذكر مختصر تفسير « ابن كثير »(٢) أن الله تعالى يقول مخبرا عن الانسان : أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئا يذكر لحقارته وضعفه • فقال تعالى : **« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا »** ؟ ، ثم بين ذلك فقال جل جلاله : **« انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج »** أى أخلاط ، والمشج والمشيج هو الشيء المختلط بعضه

---

(١) سيد قطب ، **فى ظلال القرآن** • (بيروت : دار الشروق ، ١٩٧٩) ، ج ٦ ص ٣٧٧٩ ، ٣٧٨٠ •

(٢) محمد على الصابونى ، **مختصر تفسير ابن كثير** ج ٣ (بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٣٩٣ هـ) ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١

فى بعض ، والأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة • وقوله تعالى : « **نبتليه** » أى نختبره ، « **فجعلناه سميعا بصيرا** » أى جعلنا له سمعا وبصرا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية • وقوله جل وعلا : « **انا هديناه السبيل** » أى بيناه ووضحناه وبصرناه به ، كقوله جل جلاله : « **وهديناه النجدين** »(١) أى بينا له طريق الخير وطريق الشر ، فهو فى ذلك اما شقى واما سعيد ، كما جاء فى الحديث الشريف : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها »(٢) ومن رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا »(٣) • وروى الامام أحمد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من خارج يخرج الا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فان خرج لما يحب الله أتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع الى بيته ، وان خرج لما يسخط الله أتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع الى بيته »(٤) •

* * *

مفاهيم نفسية :

بعد هذا الاستهلال المأخوذ من كلام الخالق سبحانه وتعالى ، وما أوردناه من تفسير ، يبدو من المفيد أن نستخلص أهم المفاهيم النفسية التى ناقشها المفسرون مثل : النمو والتطور ، والادراك ، والمثير والاستجابة ، والمعرفة •

أولا ــ النمو والتطور :

ما زال استخدام مفاهيم مثل النضج والرعاية والتطور والنمو بعيدا عن أن يكون مقننا تماما • والمعادلة الآتية :

النضج × الرعاية = التطور

---

(١) البلد : ١٠

(٢) رواه مسلم من حديث ابى مالك الاشعرى •

(٣) أخرجه الامام أحمد •   (٤) أخرجه الامام أحمد •

سوف تساعد القارىء على التمييز بين هذه المصطلحات التى سنقوم بشرحها[١] ..

١ ــ النضج :

يشير لفظ « النضج » الى تفتح صورة وراثية الأصل بالضرورة ، ومن ثم يقتصر النضج على مراحل التعاقب والأنماط الفطرية التى ليس لأى مؤثر خارجى سلطان عليها . ويتضمن حقيقة مؤداها أن الجهاز العصبى يمهد فى أغلب الأحوال لظهور الوظائف الجديدة ، أو بمعنى آخر أن البيئة لا تخلق الوظيفة . فالعوامل الداخلية هى التى تضمن التقدم ، أما البيئة فتساند التغيرات ولكنها لا تولدها . وبهذا تتحقق وراثة خصائص الجنس عن طريق النضج .

وتعتبر التغييرات المتضمنة فى النضج مقدمــات ضرورية ولازمة للكثير مما يقوم به الكائن الحى . مثال ذلك : أن القدرة على انتصاب القامة والمشى لابد أن تكون مسبوقة بكثير من التغيرات فى التكوينات الكبرى مثل نسبة الساق الى الجذع ، وانتقال مركز الثقل ، ثم حدوث التحكم فى أجزاء الجسم المختلفة . وكل هذه التغيرات تتطلب التعاون بين الطبيعة والرعاية ، وان كانت الطبيعة هى الأسبق وهى التى تضع الحدود والقيود ، كما أنها فى الواقع هى التى تصر على وجود البيئة وتتطلبها عند الحاجة اليها . وعملية النضج محتومة لدرجة أنها قد تتم على حساب الحياة ذاتها عندما تكون البيئة قاصرة .. فاذا وضعنا للطفل نظاما غذائيا يكفى لمجرد سد حاجات البقاء الساكنة الحالية فانه يزداد طولا ولكنه قد يفارق الحياة ، أو بعبارة أخرى أن نموه من حيث الطول سيستمر ، فى حين يتناقص وزنه وقدرته على النشاط العادى .

ويستخدم مصطلح « اكتمال النضج » أحيانا بمعنى بلوغ مرحلة معينة من التطور ، وهو أيضا حصيلة قوى النضج والرعاية ، ويتضمن غالبا فكرة اكتمال مرحلة والتهيؤ للمرحلة التالية . ولذا يوصف الطفل بأنه غير مكتمل النضج اذا ولد قبل أن يكون قد تهيأ لمواجهة بيئته الخارجية . ويقال ان الشخص مكتمل النضج اذا ما حقق المطالب الاجتماعية لســنه ، وغير مكتمل النضج اذا لم يستطع ذلك .

---

(١) ويلارد أولسون ، **نطور نمو الأطفال** (ترجمة بإشراف د/ عبد العزيز القوصى) . (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٦٢) ، ف ٢ .

٢ ــ الرعايــة :

من المألوف استخدام لفظ « الرعاية » بمعناه الواسع ، بحيث لا يشمل التغــذية فحسب ، وانما يشــمل أيضا شتى الخبرات المعقدة التى نتطلبها فى التربية والتنشئة الاجتماعية • فالكائن الحى فى تفاعل مستمر مع بيئته ، وحصول الفرد على قدر ميسور من الطعام يكفى للنمو الجسمى الملائم ، وعلى طائفة من الخبرات المنوعة المناســبة للنمو الاجتماعى والعقلى ، يعتبران من المواطن الرئيســية لاهتمــام المجتمع • والبيئة الصالحة ينبغى أن تتضمن كل ضروريات النمو الأمثل •

ويطلق لفظ « التطور » على تلك الحصيلة المعقدة لقوى النضج والرعاية كما سبق وصفهما • فاذا لم تتيسر الرعاية الملائمة فان التطور لا يتحقق ، ويستحيل حدوث أمور معينة مثل زيادة الحجم واكتساب المهارات الجسمية والقدرة على الكلام •

٣ ــ النمو :

تستخدم كلمة « النمو » لقياس التطور •• فالنمو يتعلق بالتغير فى الحجم والتعقد والتناسب وبسائر التغيرات الكيفية كالتى تطرأ على العضلات والعظام والشعر ولون البشرة وما أشبه • والنمو بمعنى الزيادة هو الذى ينطبع أكثر من غيره فى ذهن من يلاحظ الأطفال ملاحظة عرضية ، ويرجع ذلك الى شدة وضوح التغير فى طول القامة والوزن بمرور الزمن • ولكن النمو يتضمن أيضا التغيرات الداخلية مثل انقسام الخلايا الذى يجعل الجنين أكثر تعقيدا دون أن يزداد حجما ، كما يشمل التغير بمعنى النقص مثل نقص السعرات الحرارية التى يستهلكهــا الفرد بالنسبة لوحدة الوزن كلما تقدمت به السن •

والى جانب استخدام لفظ النمو لوصف التغيرات فى تكوين الجسم ووظائف الأعضاء فانه ينطبق أيضا على السلوك • ومن ثم فان تقدير التطور الحركى مثل الحبو والوقوف والمشى والجرى يعتبر جانبا من جوانب دراســة النمو • وكذلك فان التغيرات التى تطرأ على قدرة الطفل من حيث تعامله مع غيره فى الأسرة والمجتمع قد توصف باسم « النمو الاجتماعى » • والفرق بين اطلاق العنان لنوبات البكاء وسورات الغضب فى الطفولة المبكرة وبين ازدياد التحكم الذاتى الذى يظهر بالتقدم فى السن يعتبر دليلا على « النمو الانفعالى » • ولكى تكمل الصورة لابد

أن تتضمن النظرة الى النمو أيضا « النمو العقلى » ، مثل القدرة على القيام بالأعمال الذهنية المجردة وتحصيل المعلومات واكتساب المهارات فى المواد الدراسية .

ومن الممكن أن نتكلم بكثير من الثقة عن بعض صور « التعاقب » التى تحدث فى تطور النمو . فما لم تتخذ اجراءات عنيفة لتغيير التعاقب نجد أن الطفل يجلس قبل أن يقف ، ويقف قبل أن يمشى ، ويمشى قبل أن يجرى ، كما أنه يتكلم قبل أن يصبح قادرا على القراءة ، ويقرأ قبل أن يكون فى وسعه اتقان الهجاء ، كما أن قدرته على القراءة تسبق فى تطورهـــا قدرته على الكتابة .

* * *

ثانيا ـ الادراك والتفكير :

تتضمن لغة « التفكير » كثيرا من التعبيرات المجازية المشتقة من لغة « الادراك » مما يوحى بنوع من التشابه بين التفكير والادراك . ومن هذا التشابه المجازى قولنا : نظر فى المشكلة ، ورأى النور ، وكشف عن وجه الحقيقة ، وينفذ ببصره فى الموضوع ، ويلمس نقطة هامة أو يبرزها ، ويزيد الأمر جلاء ووضوحا وغير هذا من لغة التفكير . والواقع أن هذا التشابه المجازى هو انعكاس لتشابه أعمق بين الادراك والتفكير . ومن بين الدارسين والباحثين فى علم النفس من أكد القوانين الأساسية التى يخضع لها الادراك هى ذات القوانين التى يخضع لها التفكير .

فشيوع أو انتشار الصور المجازية من التعبير عند الحديث عن التفكير والادراك ليس من قبيل الصدفة لأن التفكير والادراك متداخلان ، ومن الممكن أن نحدد ثلاثة جوانب لهذا التداخل(١) :

الأول : اذا كان التفكير يعنى ما يفكر فيه الناس أو ما ينتهون اليه ، فمن المؤكد أن أفكارنا كثيرا ما تكون أفكارا عن أشياء مدركة .

الثانى : أن التفكير يعنى أيضا حل المشكلات والحكم على الأمور والمواقف . وكثيرا ما تكون المشكلة مكانية تتضمن ادراك علاقات أو الحكم

---

(١) سيد أحمد عثمان ، فؤاد عبد اللطيف أبو حطب ، **التفكير : دراسات نفسية** . (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٨) ، ف ٦ .

على مساحة أو حجم • ونحن لا نستطيع أن نفهم حل المشكلات من هذا النوع الا اذا فهمنا العمليات الادراكيه التى عن طريقهـــا تنتج مواد التفكير •

الثالث : أن التشابه بين عمليات الادراك وعمليات التفكير بصرف النظر عن مادة التفكير أو محتواه ، أى أن هناك تشابه وظيفى بين التفكير والادراك •

والاحساس هو الخطوة الأولى للادراك السليم • ولكن الادراك ليس مجرد مجموعـــة أحاسيس ، بل هو أكثر من ذلك • فالاحساس هو الخطوة الأولى فى طريقنا لمعرفة العالم الخارجى ، ولكن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد • فالانسان لا يقف من هذه الاحساسات موقفا سلبيا ، بل يتناولهـــا بالتفسير والتأويل ويضيف اليها من خبراته السابقة ما يحيلها الى معان ورموز •

فالاحساس هو النتيجة المباشرة لاثارة أعضاء الحس : صوتا أو خبرة بصرية أو لمســـا أو شما • وهذه المعلومات التى يتوصل اليها الفرد عن طريق الاحساس ليست بذات نفع أو قيمة الا اذا قام بتفسيرها • فقد يسمع أحد الأشخاص صوتا ما ، ولكنه يظل مجرد ضوضاء حتى يتعلم كيف يوحد بينه وبين رنين جرس الهاتف ، أو بينه وبين مواء قط • أما الادراك فهو الربط بين ما يحسه المرء ببعض خبراته المـــاضية حتى يعطى للاحساس معنى[1] •

* * *

ثالثـــا ـــ المثير والاستجابة :

نادى أصحاب نظرية « المثير والاستجابة » بأن الشخصية ليس لها بناء ثابت دائم ، وأن « السمات » ما هى الا صفات سلوكية موقفية ، أى تتوقف على المواقف الخاصـــة التى تعرض للفـــرد ، وليس على استعدادات ثابتة لديه • فليست هناك اذن سمات عامة اطلاقا ، بل توجد مجموعة من « العادات » النوعية ، هى عبارة عن روابط خاصة بين « مثيرات » معينة من ناحية و « استجابات » متعلقة بها من ناحية

---

(١) ديوبولد فان دالين ، **مناهج البحث فى التربية وعلم النفس** (ترجمة باشراف د / سيد أحمد عثمان . ط ٢ (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧) ، ص ٨٨ ، ٨٩ •

أخرى .. فلا معنى اذن لأن نقول ان فلانا « أمين » أو « خجول » أو « منطوى » أو « منبسط » بوجه عام .

وعلى هذا الأساس يكون التنبؤ بسلوك الفرد محدود بمعرفة شروط كثيرة ، منها الموقف نفســـه الذى يتصرف بازائه ، وليس مجرد معرفة « سمات » عامة ثابتة عنده ، اذ أن السمات ليست صفات فى الفرد ولكنها صفات للسلوك الذى يصدر عند الفرد فى مواقف خاصة . فاذا سلك شخص مثلا بشكل عدوانى فى موقف أو مواقف معينة ، فان كل ما نستطيع أن نستنتجه من هذا أنه سوف يسلك على هذا النحو فى نفس المواقف أو فى مواقف مشابهة . وبقدر ما يكون هنالك من تشابه بين المواقف المختلفة بقدر ما يكون هناك من احتمال ظهور السلوك على نفس النمط .

ومن أهم تطبيقات هذه النظرية ما قام به « ميللر » و « دولارد » Miller and Dollard (١) من بحوث وخرجا به من آراء ونظريات فى مجال التعلم والشخصية والعلاج النفسى(٢) .

* * *

رابعا ــ المعرفــة :

تتميز المشكلات التى يواجهها الانســـان بأنها حلقات فى عملية معقدة من التكيف والتوافق مع الظروف المتغيرة . واذا كانت المشاكل التى يواجهها الحيوان هى مشكلات مكانية تتطلب مثلا تحديد مواضع وأشياء فى البيئة ، أو معالجة الأشياء ، أو التحرك والتنقل من مكان لآخر ، فان ذلك يرجع فى جوهره الى أن الحيوان يتعامل مع مثيرات مادية مباشرة .

ولكن البيئة التى ينشط فيها الانسان أكثر تنوعا .. فالســـلوك الانســـانى لغوى فى أسبابه . يقول الله تعالى : « **وعلم آدم الأسماء كلها** » (البقرة : ٣١) . ويعتمد الانسان على تلك الظاهرة الاجتماعية التى تسمى اللغة ، وهى نمط السلوك الرمزى الذى يتضمن الاشارة الى الأشياء والأفكار والمعانى والمشاعر والانفعالات والاتجاهات والقيم . كما أن اللغـــة هى وسيلة الانســـان فى انتقال العالم الخارجى اليه . وهى

---

(١) J. Dollard. and N. Miller : Personality and Psychotherapy. (New York : Mc. Graw — Hill, 1950).

(٢) محمد عماد الدين اسماعيل ، **الشخصية والعلاج النفسى** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) ، ف ٦

وســيلته أيضــا فى الاضــافة الى التراث الفكرى والعلمى والثقــافى والحضارى •

والواقع أنه يكفى هذا الفرق بين الانســان وغيره من المخلوقات الحية كى يصبح الفرق سلوكيا بين الانسان وغيره من الكائنات ، فرق فى الكيف وليس فى الكم ، وفرق فى النوع وليس فى الدرجة ، وفرق أصيل يجعل الانســان فئة سلوكية والحيوان فئة سلوكية أخرى • أضف الى ذلك ما تيسر للانسان من قدرات عقليــة ونشــاط معرفى يتمثل فى الادراك والتعلم والتذكر والتفكير بأنواعها وأنماطها وفئاتها المختلفة ، وتشمل هذه جميعا ما نسميه « العمليات المعرفية » •

وأساس هذه التسمية فى اطار علم النفس الحــديث : أن هذه العمليــات تعتمد فى جوهرهــا على عملية « المعرفة » • وأفضل تعريف لهذه العملية ما يقترحه « جيلفورد »[١] من أنها « تشمل الوعى بالمعلومات واكتشافها اكتشافا مباشرا ، أو اعادة اكتشافها ، أو التعرف عليها ؛ وتشمل بذلك عمليات التعلم والذاكرة » •

وان كان البعض يرى أن يمتد هذا المفهوم ليشمل عمليات التفكير جميعا[٢] •

ويبدو من المفيد فى هذا المجال أن نناقش عملية « التعلم » فى عجالة سريعة •

الواقع أن أكثر ما يصدر عن الناس من سلوك يمكن اعتباره نتيجة تعلم سابق ، اذ أن الوراثة البيولوجية وحدها لا تكفى ولابد أن يتم التفاعل بين الفرد والبيئة تفاعلا يهتدى الانسان خلاله ويتعلم أثناءه أكثر ما يصدر عنه من سلوك فيما بعد • كذلك يلاحظ أن التعلم يشتمل على أنواع متفاوتة •• فاننا نتعلم لهجة الحديث ، والقدرة على استخدام الأشياء ، كما نتعلم كيف نثق بأنفسنا ، وأن نستمع الى الناس ونتحدث اليهم •

---

(١) J. Guilford; The Nature of Human Intelligence. (New York : Mc. Graw — Hill, 1967), P. 203

(٢) سيد احمد عثمان ، فؤاد عبد اللطيف أبو حطب ، المرجع السابق ، ف ٢ •

ويمكن تقسيم عملية التعلم الناتج خلال اشباع الفرد لحاجاته الى الأقســـام الآتيـــه :

١ — العادات والمهارات •
٢ — المعلومات والمعانى •
٣ — السلوك الاجتماعى •
٤ — السلوك الذى يتميز به بعض الأفراد عن غيرهم •

وقد روعى فى هذا التقسيم مضمون الشىء المتعلم ، دون الطريقة التى تم بها التعلم(١) •

« والتعلم هو تغير فى الأداء » • وهذا التعريف اجرائى ، لأنه يحدد لنا مفهوم التعلم ، كما نلاحظه وكما نقيسه فى الشروط التجريبية ، أو فى المواقف التعليمية المختلفة(٢) •

و « التعلم » هو تعديل السلوك عن طريق الخبرة والممارسة • ويدل هذا على أن التغيرات التى تطرأ على الأداء تحدث أثناء عملية اشباع الدوافع وبلوغ الأهداف •• وكثيرا ما يقوم التعلم فى صوره المركبة على عملية حل المشكلات • فهو يحدث عندما تعجز الطرق القديمة والأساليب العــادية عن التغلب على الصعاب أو عن مواجهة الظروف والمواقف الجديدة • ومن ثم يصبح التعلم عملية تكيف للمواقف الجديدة(٣) •

ان التعلم عملية معقدة ، وتستغرق حياة الفرد بأكملها ، وتشمل أنواعا مختلفة من النشاط والخبرات المتعددة بتعدد مواقف الحياة • لذلك كان من الصعب أن نضع لها تعريفا شاملا جامعا يتفق عليه علماء النفس جميعهم اتفاقا تاما (٤) •

---

(١) مصطفى فهمى ، **علم النفس : أصوله وتطبيقاته التربوية** (القاهرة ، الخانجى ، ١٩٧٥) ، ص ٢٣١ — ٢٣٣ •

(٢) أحمد زكى صالح ، **التعلم : أسسه ونظرياته** • (القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) ، ص ١١ •

(٣) جيتس وآخرون (ترجمة باشراف د / عبد العزيز القوصى) « **علم النفس التربوى** • (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٠) » جـ ٦ ، ص ٥ •

(٤) رمزية الغريب ، **سيكولوجية التعلم** • (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٥٩) ، ص ١٢ ، ١٣ •

وفى ختام هذه المناقشة للمفاهيم النفسية السابقة ، قد يبدو من المفيد أن نذكر أهم المبادىء الأساسية التى تؤثر على نمو الانسان وتطوره وسلوكه ، والتى تتلخص فى الآتى :

١ ــ **جوهر الحياة برمتها هو التغير** : فكل كائن حى يوجد فى حالة تفاعل دائم مع البيئة ، وهذه العلاقة وثيقة ، لدرجة أن بعض البيولوجيين يؤكدون أن الكائن الحى والبيئة وحدة لا انفصـــام لها ، أو على الأقل لا يمكن عزل بعضهما عن البعض الآخر ، وأنه من خلال تفاعل الكائن الحى مع البيئة يتغير الفرد ويتعدل سلوكه كليـــا أو جزئيا ، وفى الوقت نفســـه يغير الظروف الخارجية التى يتفاعل فيـــها • وهذه الظروف الخارجية المتغيرة تقوم بدورها بالتأثير فى التغييرات التى تتم داخل الكائن الحى ، وهكذا •• هذه الحركة الذاتية الديناميكية المتشابكة تسمى « التغير » ، وبدونها لا يمكن أن توجد الحياة كما نعرفها ، أى تصبح عدما • وهذه هى فرصتنا للتأثير المقصود فى تطوير ذواتنا وتطوير الآخرين •

٢ ــ **استمرار الحياة هو سبيلها** : وتشير كلمة « سبيل » الى ما يطرأ على الكائن الحى من تتابع الحركات المتشابكة التى تفضى الى تغيرات فى الكائن الحى وفى البيئة • وعلينا أن نتفهم علما وعملا هذا السبيل البيولوجى للحياة أو للنمو ، لأنه دائم أبدا ولا يمكن انكاره اذا قدر للحياة الاستمرار •

٣ ــ **الحياة برمتها لها اتجاه** : فلكل نشاط وجهة هو موليها ، أنى ببدأ وأنى ينته ، وقد تفقد البداية مجراها ولكن النهاية واقفة بالمرصاد حتى تنتهى الدورة •• وهذا الاتجاه وليد التفاعل السارى بين الكائن الحى والبيئة ، والتغيرات التى تحدث فى الكائن الحى والبيئة تتجه دائما نحو تحقيق الحياة ••

٤ ــ **تحقيق الذات أو توكيدها وترشيدها ليس له نهاية محددة فى سلم الارتقاء الصاعد** : فالفرد ككل لا يتوقف نموه عندما يكتمل نموه الجسمانى ، لأن الذات تشمل ما هو أكثر من الناحية الجسمية ، لأنهـــا ذات حية فريدة فى حالة صيرورة مستمرة يتقبلها صاحبها داخليا ويصوغها فى قالب فريد ويلاحظها الآخرون كشبكة مركبة من السلوك تميز فردا معينا بذاته عن بقية الآخرين مثلها تماما كبصمات الأصابع •

٥ — كل فرد يسعى دائما نحو حياة أفضل ، أو نحو الحياة الأفضل من وجهة نظره كما يراها هو : فالسلوك الانسانى فى جوهره الأصيل ما هو الا محاولة من جانب الفرد لاستغلال أحسن طاقة لديه فى الظروف المباشرة التى يقع تحت طائلها • والأشخاص الذين يواجهون موقفا واحدا يدركونه كل بحسب مفهومه وادراكه ، ولذلك ينتهجون مسالك مختلفة حيال الموقف الواحد • فلكل وجهة هو موليها ، ولكن الكل ينشدون الحياة الأفضل ، ولكنهم يختلفون فى تفسير الظروف القائمة ومعانيها بالنسبة للمستقبل •

٦ — لكى يتحرك كل فرد فى اتجاه واقعى فعال نحو الرشد المفضى الى حياة أحسن ، فعلى كل فرد أن يحسن فهم المعانى المكونة لذاته : فكل سلوك هادف ، وأى سلوك هو محاولة من الفرد لسد حاجاته واشباع ضروراته لتحقيق ذاته • وبعض هذه الحاجات والضرورات سطحية قشرية ، والبعض الآخر يتغلغل الى أغوار ذات الفرد عمقا وانتشارا • وسواء أكانت الحاجة سطحية أم عميقة فهو يتلقاهـا دائما بمدركاته ومعانيه وقيمه ، وكلها حصيلة خبراته المـاضية • فاذا وجدت ظروف لم تكن فى الحسبان وعاقت هذا الاشباع لحاجات الفرد اضطر لخلق معان جديدة يواجه بها الموقف الجديد ليعيد تنظيم خبراته ويعيد النظر فى مفهومه عن ذاته • وفى الظروف العادية للحياة يعدل كل فرد باستمرار مدركاته للمؤثرات الداخلية والخارجية ، فى حين يحتفظ بعلاقة مرنة مع بيئته • فعلى كل فرد أن يتعلم كيف ينمى معانيه ومفاهيمه الجديدة مع غيره فى مواقف للحياة مشتركة •

ان البينات الدالة على صحة هذه المبادىء الأساسية تؤيدها الخبرة ، وهى الدعامة الوحيدة التى عليها يرتكز كل درس وكل فحص ، وكل فرد يبرر سلوكه بخبرته هو ولا مورد له سواها والخبرة التى تقوم وتفحص وتتأكد بنتائجها الانفعالية والعقلية ، ويتقبلها صاحبها والآخرون بقبول حسن ، أجدى وأقوم سبيلا من خبرة تأتى نتيجة عدوى انفعالية ، أو نزوة عارضة ، أو سلطة مفروضة لا تتيح فرصة للتقويم الايجابى(١) •

* * *

(١) توماس هوبكنز (ترجمة د/ محمد على العريان) ، **النفس المنبثقة** • (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠) ، ص ١٦ — ٢٩ •

نشأة الانسان وتطوره :

لقد جاءت آيات خلق الانسان كلها فى سياق العظة والاعتبار ، تلفت النظر الى أطوار الجنين البشرى التى يدركها الناس بأيسر ملاحظة وانتباه . ويبدو فى هذه الآيات العمد الواضح الى الاستدلال بها على القدرة الالهية على البعث :

« فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . أنه على رجعه لقادر » (الطارق : ٥ — ٨) .

« قتل الانســـان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم اذا شاء أنشره » .
(عبس : ١٧ — ٢٢)

« انا خلقنا الانســـان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنـــاه سميعا بصيرا . انا هدينـــاه السبيل اما شاكرا واما كفورا » .
(الانسان : ٢ ، ٣)

« أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليـــم » .
(يس : ٧٧ — ٧٩)

« أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » .
(الكهف : ٣٧)

واذا كان الأسلوب العلمى فى علوم التشريح والأحياء ، لا يتعلق بمثل الكفر أو الشكر والايمـــان ، والخصومة والابتلاء والغرور .. فان طبيعة النص القرآنى من حيث هو كتاب هدى ودين ، تقتضى توجيه كل لفظ وآية الى مناط الهداية والاعتبار .

ولمثل هذه الغاية ، يحرص القرآن الكريم على تذكير الانسان بضعفه وهوانه ، فيلفته الى خلقه من تراب ، أو من طين ، أو من نطفة ، أو من علقة ثم من نطفة ، أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، كبحا لجماح غروره كيلا يتجاوز قدره فيطغى ويستكبر . والانسان مظنة أن يتمادى به الغرور والطغيان الى حد الكفر بخالقه ، والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين :

« **خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين** » (النحل : ٤)

« **وخلق الانسان ضعيفا** » (النساء : ٢٨) .

« **أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** » .

(مريم : ٦٧)

« **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك** » (الانفطار : ٦ — ٨) .

ومن شأن الانسان أن ينسى ربه فى حال النعمة والقوة ، فأما اذا مسه الضر فانه يذكر خالقه فى ضراعة وابتهال :

« **واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه** » (يونس : ١٢) .

« **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور** » (هود : ١٠) .

« **واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر كان يئوسا** » (الاسراء : ٨٣)

« **واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار** » (الزمر : ٨) .

« **كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى** » (العلق : ٦ ، ٧)

والانسان فى القرآن الكريم هو الذى يختص بالعلم والبيان :

« **علم الانسان ما لم يعلم** » (العلق : ٥) .

« **الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان** » .

(الرحمن : ١ — ٤)

وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر ، والتمييز بين الخير والشر ، وذلك كله من جوهر انسانيته ، وبها يحمل الأمانة ، ويحتمل تبعات التكليف ، ومسئولية الثواب والعقاب :

« **وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** » (النجم : ٣٩ — ٤١) .

« **أيحسب الانسان أن يترك سدى** » (القيامة : ٣٦) .

« **وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** » .
(الاسراء : ١٣ ، ١٤)

ثم ان الانسان هو الذى يحتمل الوصية ، وهموم المكابدة ، واقتحام العقبة ، لتحقيق وجوده الانسانى وأداء مسئوليته الاجتماعية :

« **ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير** » (لقمان : ١٤) .

« **لقد خلقنا الانسان فى كبد . أيحسب أن لن يقدر عليه أحد** » .
(البلد : ٤ ، ٥)

« **ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة** » (البلد : ٨ — ١٢) .

« **والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » (سورة العصر) .

كما أنه هو — الانسان — الذى يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية :

« **لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا** » (الفرقان : ٢٩) .

« **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** » (سورة ق : ١٦) .

« **انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا** » (الانسان : ٢) .

ويظل الانسان ما عاش كادحا لمصيره ، محتملا هموم المكابدة وتجربة الابتلاء ، حتى يحين الأجل فيمضى :

« **يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه** » .
(الانشقاق : ٦)

فما أعجب قصة هذا الانسان فى رحلته العابرة بين الحياة والموت ..
هل تعدو أن تكون فى مجملها الا كما وصفها البيان القرآنى[١] :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

(التين : ٤ — ٦)

* * *

انسانية الانسان :

الانسان فى القرآن الكريم ، غير البشر .. فاستقراء مواضع ورود « بشر » فى القرآن كله ، يؤذن بأن البشرية فيه هى هذه الآدمية المادية التى تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق . وفيها يلتقى بنو آدم جميعا على وجه المماثلة التى هى أتم المشابهة[٢] .

وبهذه الدلالة ، ورد لفظ البشر ، اسم جنس ، فى خمسة وثلاثين موضعا من القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعا فى بشرية الرسل والأنبياء . مع النص على المماثلة ، فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المــادية ، بينهم وبين سائر البشر :

« ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ، وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم ، أفتأتون الســحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعــلم القول فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شــاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون . وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعــلمون . وما جعلناهم جســدا لا يأكلون الطعــام وما كانوا خالدين » (الأنبيــاء : ٢ — ٨) .

« قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا

---

(١) عائشة عبد الرحمن : **القرآن وقضايا العصر** . (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٢) ، ص ٢١ — ٢٥ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٥ .

تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .
(ابراهيم : ١٠ ، ١١)

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .
(الكهف : ١١٠)

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » (المؤمنون : ٣٣) .

ان لفظ « الانسان » يلتقى مع الانس فى ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية الأصلية للمادة على نقيض التوحش ، ثم ينفرد كل منهما بملحظ خاص يميزه عن الآخر .. فدلالة الانسية هى المتعينة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ الانس دائما فى مقابل الجن بما تعنى من توحش وخفاء . أما « الانسان » فليس مناط انسانيته ، فيما نستقرىء من آيات البيان المعجز ، مجرد كونه منتميا الى فصيلة الانس ، كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » (الحجر : ٢٦)

« خلق الانسان من صلصال كالفخار » (الرحمن : ١٤) .

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (التين : ٤) .

« خلق الانسان . علمه البيان » (الرحمن : ٣ ، ٤)

وانما الانسانية فيها ارتقاء الى الدرجة التى تؤهله للخلافة فى الأرض واحتمال تبعات التكليف وأمانة الانسان ، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز ، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر ، وفتنة الغرور بما يحس من قوته وطاقته ، وما يزدهيه من الشعور بقدره ومكانته فى الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات . بحيث ينسى فى نشوة زهوه وكبرياء غروره ، أنه المخلوق الضعيف الذى

يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول الى عالم الغيب ، على الجسر المفضى حتما الى حفرة من تراب ••

وعندما نمضى فى تدبر آيات القرآن عن هذا « الانسان » بوجه خاص ، فاننا نجتلى ملامح صورته وخصائص انسانيته التى يتميز بها عن مجرد كونه فردا من النوع البشرى أو من الانس •

فقد ورد لفظ « الانسان » فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة ، وعندما نتدبر سياقها جميعا فاننا نطمئن الى الدلالة المميزة للانسانية •

ونكتفى فى هذا المجال — بالاضافة الى ما سبق ذكره فى نشأة الانسان وتطوره — بسورة العلق ، أول ما نزل من الآيات البينات ، وفيها يمكن أن نجتلى الملامح العامة للانسان ، وقد تكرر ذكره فى هذه السورة الأولى ثلاث مرات :

الأولى : تلفت الى آية خلقه من علق •

والثانية : تشير الى اختصاصه بالعلم •

والثالثة : تحذر مما يتورط فيه من طغيان ، حين يتمادى به الغرور فيرى أنه استغنى عن خالقه :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم • كلا ان الانسان ليطغى • أن رآه استغنى • ان الى ربك الرجعى » (العلق : ١ — ٨) •

هذه هى السمات المجملة للانسان ، كما بدت فى السورة الأولى من القرآن • ثم تتابعت الآيات من بعد ذلك تزيدها جلاء وبيانا ، بما تضيف اليها من اضاءة كاشفة لدقيق الملامح وخفى النوازع •

* * *

الانسان والمجتمع :

يركز الاسلام على بناء الفرد كنواة صالحة للجماعة من خلال الأسرة •• بناء الفرد بوصفه عاملا أساسيا فى تكوين الأسر التى تمثل الخلايا والوحدات الرئيسية للمجتمع ، والانسان عنده كائن جسدى وروحى معا • فبناء الانسان هو هدف كبير ، وأساس هذا البناء يقوم أصلا على أن يصبح الانسان شخصية سوية — سليمة — متزنة ، ويكون

فى الوقت ذاته لبنة فى بناء المجتمع • ويتحقق هذا البناء فى مجالات ثلاث هى : الجسم ، والعقل ، والروح • ويقوم ذلك أساسا على مبدأ التوافق بين الفردية والجماعية ، والمجتمع فى خدمة الفرد ، والفرد فى خدمة المجتمع ، وكلاهما متكاملان •

هذا التوازن بين الفرد والجماعة هو الذى شقيت الانسانية دون الوصول اليه •• فهى اما فردية مغرقة فى ذاتها أو جماعية جامدة تصب الأفراد فى قالب واحد من الميول والأهواء • وهذا يعنى أننا نجد المجتمع اما مغرقا فى الفردية ، بحيث يتحكم الفرد فى مصير المجتمع ويسخره لخدمة أغراضه الشخصية ، أو مغرقا فى الجماعية بحيث تذوب شخصية الفرد وتنصهر فى بوتقة الجماعة ويصبح ترسا فى عجلة الجماعة •• وحيث يقرر الاسلام التوازن بين الفرد والجماعة ، فهو يقيم « التكافل الاجتماعى » على أساس الاخوة ، وهو طراز من التعاطف الانسانى من شأنه أن يقضى على العنصرية والطبقية ويحرر العقيدة من التعصب • فمفهوم المجتمع فى الاسلام يقوم على أمرين ، الأول : التعادل بين ثنائية الفرد ذاته وبين الفرد والآخر ، والثانى : التوازن بين الفرد والمجتمع •

ويعطى الاسلام أهمية كبرى للانسان كفرد فى مجتمع ، ويؤكد حاجته الى التقدم المستمر ، وبذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها — فكرية وخلقية وعملية — لتنطلق فى خدمة تقدمه كانسان •

كذلك دفع الاسلام المجتمع كله فى طريق واحد دون السماح لعائق أن يقف فى وجه تقدمه ، ولا سيما القانون الطبقى الذى يحكم الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها وليس على أساس امكانياته وما يمكن أن يقدم للمجتمع من خدمات • كذلك فان كل فرد فى المجتمع الاسلامى يستحق الاحترام والتقدير بقدر ما يتحمل من مسئولية وبقدر ما يتحلى به من صفات طيبة •

والفرد فى الاسلام له حق وعليه واجب نحو نفسه ومجتمعه سواء بسواء • فهو يتأمل فرديا ، ويعمل اجتماعيا ، ويرعى نفسه ، ويكون مسئولا عن رعيته « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (حديث شريف) •

وبالاضافة الى ذلك فانه يشاور الجماعة فى الأمر ، واذا عزم توكل على الله :

« **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين** » (آل عمران : ١٥٩) •

فالشورى أصل أصيل وركن ركين فى الاسلام ، ولقد قيل : « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار » • والقرآن على نهجه فى التشريع يشرع كبريات الأسس والقواعد ، ويترك التفاصيل للجماعة بحسب ظروف الزمان والمكان • فلكل دولة الحق فى أن تسن طريق الشورى وفق ظروفها وبيئتها ، والمهم أن يكون مبدأ الشورى موجودا خشية تسلط الفرد وتحكمه وطغيانه • وللفرد حق الكسب والتملك ، على أن يؤدى الزكاة والصدقات • وحينما تستدعيه حاجة المجتمع فانه يقدم على التضحية مؤمنا بأن التضحية حياة له وأن الهرب منها معناه أن يلقى بنفسه الى التهلكة(١) •

وفى ختام الحديث عن الفرد والمجتمع ، ينبغى أن نلفت النظر الى حقيقة هامة وهى : أنه مهما توفرت الامكانيات المادية ، فان هذا لا يغنى المجتمع عن اتباع هداية الله • يقول القرآن الكريم :

« **ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ، اذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** » •
(الأحقاف : ٢٦)

تخاطب هذه الآية العرب ، وفى مقدمتهم قريش ، وتعرض أمامهم صورة من صور التاريخ وهى صورة قوم عاد مع رسولهم هود •• فلقد أنعم الله على قوم عاد فى جنوب شبه الجزيرة العربية بأسباب القوة والازدهار ومظاهر الجاه •• فزادهم فى الخلق بسطة ، وأنعم عليهم بالعلم والثقافة والفن ، كما أنعم عليهم بخيرات الطبيعة وبالقوة البشرية الفنية ، فكان أن عمروا الأرض ، وتصوروا أنهم خالدون فى هذه الحياة ، فأساءوا استخدام امكانياتهم :

« **واذا بطشتم بطشتم جبارين** » (الشعراء : ١٣٠) •

كانت لهم المساكن التى يتحدون بها الدهر ، ولكنهم كانوا يمارسون

---

(١) أنور الجندى ، **مفاهيم العلوم الاجتماعية : النفس والأخلاق فى ضوء الاسلام** • (القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٧) ، ص ١٧٩ — ١٨٥ •

العبث والترف فى داخلها . وكانت لهم عيون المـــاء الجارية ، والحدائق الغناء المثمرة ، والثروة الزراعية والنباتية . ولكنها غرتهم وخدعتهم فطغوا بها ، وعاثوا فى الأرض الفساد :

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة » (فصلت : ١٥) .

ولأن قوم عاد أساءوا استخدام نعم الله ، أذاقهم الله عذاب الخزى فى الحياة الدنيـــا :

« فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحســات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون » .
(فصلت : ١٦)

وهود — وهو رسولهم — لم يرد منهم الا أن يصرفوا هذه النعم فى منفعة الانسان ، وليس فى البطش به ، أو فى العبث والفساد .. لم يرد منهم الا أن يؤمنوا بالله وحده ، وباليوم الآخر ، ولكنهم جحدوا بآيات ربهم :

« وتلك عاد ، جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد » (هود : ٥٩) .

يخاطب القرآن عرب قريش بعرض هذه القصة التاريخية عليهم .. واذا كانت عاد مع قوتها ومعرفتها أخزاها الله ، فهو سبحانه قادر على أن يصيب قريشا بخزيه اذا استمر موقفها من رسالة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، بما هو عليه من المعارضة والتحدى .

ان اتباع دين الله من شأنه أن يحفظ نعم الله من التبديد أو اساءة استخدامها ، كما يحفظ على المجتمع تماسكه وتعاونه وتآزره . فدين الله لا يطلب سوى استقامة السلوك ، والمودة فى العلاقات ، وتجنب الظلم والطغيان ، والمساواة فى الاعتبار البشرى ، ووضع الناس جميعا فى مسئولياتهم أمام الله وحده .. ان فى اتباع دين الله الضمان لبقاء نعم الله ، وسلامة الانسان فى عقله وتفكيره ، وعلمه ، وثقافته ، وفنه ، فى الأمة والمجتمع(١) .

* * *

(١) الدكتور محمد البهى ، **القرآن الكريم). يقول** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩) ، ص ١٦ — ١٨ .

الخلاصـــــة

خلق الله الكون وسخر كل ما فيه للانسان ، لأن الله هو الذى استدعى الانسان للوجود فلابد أن ييسر له وسائل الاستبقاء فى هذا الوجود • وذلك هو عطاء الربوبية ، لأن الرب هو المربى والسيد والمالك •• ومعنى المربى : أن يتعهد من يربيه الى أن يبلغ الكمال المرجو له ، لذلك كان من رحمة الله تعـــالى أن استجابت الأرض بكل ما فيها للانسان •

ان الانسان وسط الوجود المحيط به بمثابة « السيد » •• فالكل فى خدمته ، وهو لا يخدم أحدا • الكل مسخر له ، وهو غير مسخر لأحد •• وان كان — فى ظاهر الأمر — يخدم بعض المخلوقات ، فهى خدمة ظاهرة تعود له فى النهاية ، مثل رعايته للأرض والحيوان • وكل شيء يصب فى خدمته اما بالمباشرة أو بالواسطة •• فالانسان يأخذ من الجماد والنبات والحيوان مباشرة ، ويأخذ أيضا من كل هذه بالواسطة •

والوجود — على هذه الصورة — يمكن تقسيمه الى سيد ومسود •• خادم ومخدوم • والانسان لا يستطيع الادعاء أنه صنع هذه الأشياء المسودة لتخدمه ، لأن فيها أمور كثيرة لا تدخل تحت طاقته ولا قبل له بها ، وهى تؤدى له خدمات قبل أن يوجد له عقل يفكر ، وطاقة تفعل •• لابد اذن أن يبحث الانسان عن قوة أكبر منه ومن المســودات جعلتها جميعا مسخرة له •• فيبحث عن « سيد » له هو الآخر • ان لم يفعل ذلك ، أصبح تافها ، لأن المخلوقات لها مهمة فيما عداه •• لا مهمة له • كل هذا التسخير •• يجب أن يدفع الانسان للبحث بعقله عن المهيمن على الكون ، وهذا البحث هو بداية الاستدلال • وبالاستقراء نجد أن الكون مسخر لخدمة الانسان فهو الغاية ، وأيضا الوسيلة : لأنه يتفاعل مع الموجودات لتعطيه نتاجها فى النهاية[1] •

الانسان هو أكرم شيء فى هذا الوجود ، وهو مكرم عند الله ابتداء من آدم عليه السلام ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها • والقرآن

---

(١) محمد متولى الشعراوى ، **١٧ قضية فى ميزان الاسلام** • (القاهرة : المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٧٧) ، ص ٥٤ ، ٥٥ •

الكريم يشير الى كرامة الانسان بقوله : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » (الاسراء : ٧٠) •

لقد كرم الله الانسان كانسان من غير اعتبار آخر من دين أو لغة أو قومية •• فالناس جميعا متساوون كأسنان المشط ، أولاد أب واحد وأم واحدة :

« **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** » (النساء : ١) •

« **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » (الحجرات : ١٣) •

ولقد خلق الله الانسان فى أحسن تقويم ، وسخر لهذا الانسان ما فى السموات وما فى الأرض :

« **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** » (التين : ٤) •

« **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا** » (النحل : ١٤)

« **وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره ، وسخر لكم الأنهار • وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار** » •
(ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣)

واذا كان الله قد خلق الانسان فى أحسن تقويم وكرمه بصفته انسانا ، فان الانسان اذا انحرف عن الحق وتنكر لخالقه واتبع سبيل الغواية ، حينئذ يسقط الى أسفل سافلين وينحط تحت درجة الحيوان :

« **ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون • الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** » •
(الأنفال : ٥٥ ، ٥٦)

وبعد •• لقد احترم الاسلام كرامة الانسان ، وجعل الحجة والبرهان والاقتناع سبيل الايمان ، وترك للانسان حرية الاختيار ، وأعلن دستوره الخالد بألا اكراه فى الدين ، وحدد مهمة الرسول بالبلاغ والتذكير :

« **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » •
(الكهف : ٢٩)

« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » (البقرة : ٢٥٦)

« ان عليـــك الا البلاغ » (الشورى : ٤٨) .

« فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمســـيطر . الا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . ان الينـــا ايابهم . ثم ان علينـــا حســـابهم » (الغاشية : ٢١ — ٢٦) .

« ان الله خلق آدم من قبضة قبضهـــا من جميع الأرض ، فجـــاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء فيهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك »[1] .. (رواه أبو داوود)

* * *

(١) عز الدين بليق ، **منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين** . (بيروت : دار الفتح ، ١٩٧٨) ، ص ١١٤ .

الفصل الثانى

خصائص النفس البشرية

فطرة الانسان :

« الانسان » كائن فذ فى هذا الكون .. فذ فى طبيعته ، وفذ فى وظيفته وغاية وجوده ، وفذ كذلك فى مآله ومصيره .. انه مخلوق غير مكرر فى جميع الخلائق التى عرفناها ، والتى يحدثنا الله عنها كذلك ولا نراها ، ومخلوق بقدر ، فلم يوجد هكذا مصادفة ولا جزافا . ومخلوق لغاية ، فلم يخلق عبثا ولا سدى . وهذا واضح فى نظرة الاسلام الى الانسان بجملتها .. فالانسان — فى التصور الاسلامى — هو سيد هذه الأرض ، بخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسخر له ، بقدرة الله تعالى . وقد أوتى امكان العلم بشئونها ، هبة من الله سبحانه ، والاستمتاع بطيباتها وجمالها ، نعمة منه خالصة . وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء ، ولكن كذلك السموات مهيأة لمساعدة الانسان فى خلافته فى الأرض[1] .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم . واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم

---

(١) سيد قطب ، **الاسلام ومشكلات الحضارة** . (القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢) ، ص ٢٢ — ٢٥ .

بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون · واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (البقرة : ٢٩ — ٣٤) ·

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون · وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الجاثية : ١٢ ، ١٣) ·

« والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون · ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون · وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم · والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون · وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين · هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون · ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون · وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون · وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون · وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون · وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون · وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون » (النحل : ٥ — ١٦) ·

لكن هذا الانسان — فى التصور الاسلامى كما هو فى الحقيقة — على كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى فى هذا الملك العريض ، وعلى كل ما سخر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء فيه ، وعلى كل ما أودعه هو من طاقات المعرفة والاستعداد لادراك الجوانب اللازمة له فى الخلافة من النواميس الكونية ·· على كل هذا هو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحيانا ويحكمه هواه أحيانا ، ويقعد به ضعفه أحيانا ، ويلازمه جهله بنفسه فى كل حين ·

وأول ما ظهر من ضعفه وعجزه وخضوعه للاغراء والشهوات ، ما يصوره القرآن الكريم من استسلامه لاغواء الشيطان بشهوة الخلد

وشهوة الملك ، ونسيانه أنه عدوه الذى يتربص به ، ونسيانه كذلك تحذير الله له •• وهو تصوير للحقيقة الخالدة فى الانسان ••

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما • واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى • فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى • ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى • وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى • فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى • فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى • ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى • قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى • وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » •

(طه : ١١٥ — ١٢٧)

وتتواتر الاشارات الى جهل الانسان بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ومآلات أفعاله ، مع تأثره بالشهوات والهوى والضعف ، بحيث لا يصلح — بجهالته هذه وضعفه وهواه — لأن يتولى وضع منهج لحياته هو ، وان كان مزودا بالقدرة على استخدام المادة ، ومعرفة قوانينها اللازمة له فى الخلافة ، فى اطار المنهج الذى رسمه الله لحياته ••

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء : ٨٥) •

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون • يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » •

(الروم : ٦ ، ٧)

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (لقمان : ٣٤) •

« فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » •

(النساء : ١٩)

« **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لـكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لـكم ، والله يعـلم وأنتم لا تعلمون** » (البقرة : ٢١٦) .

« **لا تدرى لعـل الله يحدث بعد ذلك أمرا** » (الطلاق : ١) .

« **ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهـدى** » (النجم : ٢٣) .

« **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** » . (المؤمنون : ٧١)

« **ان الانســان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا** » (المعارج : ١٩ — ٢١) .

وتستهوى الانسان الحياة الدنيا بزخارفها ومباهجها وزينتها ، وتجرفه فى تيارهـا .. فينهل من هذه المباهج ، وينصرف عن عبادة الخالق وطاعته ، ويمشى فى الأرض مرحا ، ويستبد ويطغى ، ولا يعمل حسابا لآخرته ..

« **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** » (الحديد : ٢٠) .

« **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسـدين** » (القصص : ٧٧) .

« **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى** » . (النازعات : ٣٧ — ٣٩)

« **كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى** » (العلق : ٦ ، ٧)

« **من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون** » . (الأعراف : ١٨٦)

ومن الحديث النبوى الشريف(١) :

« لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » . (الترمذى) .

---

(١) عز الدين بليق ، **منهاج الصالحين** . ص ١١٥ ـ ١١٧ .

« انما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » .
(ابن ماجه)

« الدنيـــا حلوة خضرة ، وان الله مستخلفكم فيـــها ، فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيـــا واتقوا النساء ، فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت من النساء » .(أحمـــد) .

« الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » .
(أحمد والبيهقى)

« من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » . (أحمد) .

« لا تسبوا الدنيا فلنعم المطية للمؤمن ، عليها يبلغ الخير ، وعليها ينجو من الشر » . (الديلمى) .

« أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم » . (الشهاب) .

* * *

خصائص النفس البشرية :

لقد تحدث « الغزالى » عن « النفس البشرية » فاستخدم للدلالة عليها ألفاظا أربعة هى : النفس ، والقلب ، والروح ، والعقل . وهذا ما يدعونا الى أن نعرض بشكل موجز لهذه الألفاظ لنعرف ما اذا كان قد استعملها بمعنى واحد أو بمعان مختلفة[1] .

لقد وردت هذه الألفاظ — عدا لفظ « العقل » — فى القرآن الكريم . وسنرتب الحديث عن كل منها على أساس مدى شموله لمفهوم الانسان بصورة عامة ، أو تخصصه وانفراده بجوانب معينة منه . وعلى هذا الأساس يكون الحديث عن « النفس » فى البداية ، لأنها أكثر شمولا وأوسع استعمالا من مختلف الألفاظ الأخرى ، كما أنها غالبا ما تدل على كيان الانسان ككائن حى ..

---

(١) عبد الكريم العثمان ، **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص** . (القاهرة : مكتبة وهبة — الطبعة الثانيـة — ١٩٨١) ، ص ٥٣ — ٥٨ .

ثم يأتى لفظ « القلب » الذى استخدم للدلالة على العنصر الواعى والعاطفى فى الانسان •• أما « الروح » فغالبا ما تمثل حقيقة مجردة ذات أصل الهى تتصل بالانسان على نحو خاص •• أما فعل « العقل » فيطلق فى القرآن الكريم للدلالة على الفهم والتفكير •

١ ـــ النفس :

لقد وردت على صور متعددة فردية وجمعية • وهى تدل أكثر ما تدل على الانســـان ككائن حى ، ذى أصل واحد ، يتكاثر ويكسب ويشعر وينفعل ، كما وردت أحيانا للدلالة على طوية الانســـان وجوهره ، أو للدلالة على شىء معين ••

ومن الأمثلة على استخدامها للدلالة على الانسان :

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » (البقرة : ٤٨)

« لا تكلف نفس الا وســـعها » (البقرة : ٢٣٣) •

« قوا أنفســـكم وأهليكم نارا » (التحريم : ٦) •

« وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » (الزخرف : ٧١)

« أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميـــعا » (المـــائدة : ٣٢) •

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (البقرة : ٢٢٨)

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » (يوسف : ٣٢) •

وقد وردت كلمة « النفس » فى القرآن الكريم للدلالة على الذات الالهية ، مثل :

« ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد » (آل عمران : ٣٠)

« واصطنعتك لنفسى » (طه : ٤١) •

« تعـــلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » (المائدة : ١١٦)

« كتب ربكم على نفسه الرحمة » (الأنعام : ٥٤) •

ومن الأمثلة على استعمالها للاشارة الى ضمير الانسان وطويته الآيات التالية :

« ربكم أعـــلم بما فى نفوسكم ، ان تكونوا صالحين » •
(الاسراء : ٢٥)

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد : ١١)

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » •
(سورة ق : ١٦)

ولقد وردت هذه الكلمة للدلالة على النفس كأمر خاص فى الانسان ، قد يكون جوهرا قائما بذاته ، وقد يكون مجرد تعبير مجازى عن حقيقة الانسان وماهيته •• وذلك مثل :

« لا أقسم بيوم القيامة • ولا أقسم بالنفس اللوامة » •
(القيامة : ١ ، ٢)

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء » (يوسف : ٥٣) •

« يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعى الى ربك راضية مرضية » •
(الفجر : ٢٧ ، ٢٨)

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » •
(النازعات : ٤٠)

وهكذا فان النفس فى القرآن تدل على الذات بمجموعها ، مشيرة الى عنصر الدوافع والنشاط الحيوى ، أكثر من دلالتها على المعنى الواعى • فهى لفظ عام يشمل الانسان كله ، ولا يختص بالدلالة على التفكير أو الفهم •

* * *

٢ ــ القلب :

لقد كان ورود لفظ « القلب » فى القرآن أقل من لفظ « النفس » • ويبدو أن أكثر معانيه تدور حول المعنى الوجدانى والعقلى فى الانسان • ولذلك يبرز كأساس للفطرة السليمة ، والعواطف المختلفة ــ سواء ما يختص منها بالحب أو بالكراهية ــ ومحل الهداية والايمان والارادة والضبط والفهم •

فمن حيث أنه محل الفطرة السليمة فلقوله تعـــالى :

« الا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء : ٨٩) •

وأما دلالته على الاعتبار والفهم والهداية فللآيات الآتية :

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » •
(سورة ق : ٣٧)

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (التغابن : ١١) •

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » (المائدة : ٤١) •

« ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم » •
(الحجرات : ٧)

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (النحل : ١٠٦) •

ولكن القلب ليس دائما محل الهداية والايمان ، فقد يشير الى الاثم والمعصية ، كقوله تعالى :

« كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » (الحجر : ١٢) •

« ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه » •
(البقرة : ٢٨٣)

أما دلالة القلب على العواطف المختلفة فيدل على ذلك الآيات الآتية :

« وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » (الحديد : ٢٧)

« وليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » (آل عمران : ١٥٦)

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » (آل عمران : ١٥١)

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك » (البقرة : ٧٤)

ويتضح مما سبق أن معنى القلب فى القرآن الكريم أكثر تخصصا من معنى النفس ، فهو لا يدل على الدوافع الفطرية وانما يقتصر على الجزء الواعى منه •

* * *

٣ ـ الروح :

لم يتكرر لفظ « الروح » فى القرآن الا قليلا ، ولكن استعماله كان متنوعا • وقد وردت هذه الكلمة بما يفيد افاضة الحياة من الله على الانسان ، كقوله تعالى :

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » •
(الحجر : ٢٩)

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه » (السجدة : ٩) •

والروح هنا مضافة الى الله — سبحانه — دائما .

واستعملت كلمة الروح فى معنى مشابه للمعنى الأول ، وان كان أكثر تخصيصا منه ، وذلك للدلالة على خلق عيسى عليه السلام :

« **فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** » (مريم : ١٧)

« **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا** » (الأنبياء : ٩١)

كما استعملت هذه الكلمة فى الدلالة على القرآن :

« **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا** » (الشورى : ٥٢) .

ووردت فى الدلالة على الوحى والملك الذى ينزل به :

« **يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق** » . (غافر : ١٥)

« **قل نزله روح القدس من ربك بالحق** » (النحل : ١٠٢)

« **نزل به الروح الأمين . على قلبك** » (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤)

وفى كل هذه المعانى التى أشار اليها القرآن الكريم لا نلاحظ ورود هذه الكلمة للدلالة على البدن وحده أو على البدن مع الروح — بمعنى الانسان وفعاليته ونشاطه — كما هو الأمر بالنسبة « للنفس » ، مما يدل على تميز « الروح » عن « النفس » فى لغة القرآن .

* * *

٤ — العقــل :

لم يرد لفظ « العقل » كمصدر فى القرآن اطلاقا ، ولكن ورد فعل العقل بمختلف اشتقاقاته ، وكلها تدل على عنصر التفكير فى الانسان ، ومثال ذلك :

« **يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه** » . (البقرة : ٧٥)

« **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون** » (البقرة : ٤٤) .

« **ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** » . (الأنفال : ٢٢)

« **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** » .

(الملك : ١٠)

وللنفس علامات سبعة هى(١) :

١ — أمارة ، ٢ — لوامة ، ٣ — ملهمة ، ٤ — مطمئنة ، ٥ — راضية ، ٦ — مرضية ، ٧ — كاملة .

وينبغى البدء بعلاج النفس « الأمارة » ، لأنها لم تتخلص بعد من الضعف والجهالة وتنقاد الى الحس الظاهرى ، وتميل الى الغرور والتعالى والأنانية دون أن تلقى أى اهتمام للقيم والمبادىء والمثل والفضائل .

واذا ما تيسر للنفس تحقيق ما تنزع اليه من حظوظ ، طلبت المزيد .. فهى لا تشبع من جوع ، ولا تسكن عن طلب ، ولا تزهد فى شهوة ، وانما تطلب أبدا المزيد .. فاذا ما تحقق لها ما تطلب ، طمعت وتعالت وانحرفت عن الهدى .. وبذلك يصبح حب السيطرة سلوكها ، والبطش حالها ، والحقد والغضب معدنها ، والشهوة سلطانها .

وأخيرا تنتهى هذه النفس بصاحبها الى الضلال والانحراف .. وتسمى بالشخصية غير المستقيمة ، أو غير المتوازنة ، وتنطبق عليها أوصاف مختلفة مثل : الضالة ، أو الشرهة ، أو الفاسقة ، أو المنحرفة ، أو الشريرة ، أو غير السوية .

ولقد وجد أئمة الاسلام أنه لعلاج هذه الشخصـــية يجب البدء بعملية تخلية من الصفات المذمومة ، ثم تحلية هذه النفس بالصفات المحمودة ، ويتم ذلك بطريق المجاهدة(٢) . والسبيل أن يسعى الانسان للتخلص من آفاته ونقائصه ، وذلك بالتوبة والندم على ما فعله من الذنوب والمعاصى .

* * *

---

(١) حسن محمد الشرقاوى ، **نحو علم نفس اسلامى** . (الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦) ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) أبو حامد الغزالى ، **احياء علوم الدين** (جـ ٨) . (القاهرة : الحلبى ، ١٩٥٧) ، ص ١٤٣٨ .

طبيعة الكائن البشرى وخصائصه :

اذا ما تساءلنا عن خصائص الطبيعة البشرية التى يتحدد من خلالها مدى تكامل الفرد بقدر ما ينعكس منهـا فى سـلوكه ، تتضح النقاط الآتية(١) :

١ ــ الانسان كائن مفكر :

لا شك فى أن الانســان يشترك مع الحيوان فى كثير من الصفات البيولوجية ، ولكن تكامله لا يقوم على تنمية هذه الصفات التى يشترك فيها مع باقى أعضاء المملكة الحيوانية ، حيث ان تحقيقه للامكانيات التى ينفرد بها هو يميزه عن باقى أنواع تلك المملكة •

وأولى تلك الصفات أو الامكانيات هى قدرة الانسان على الكلام ، أى على استخدام الرموز اللغوية • فالانسان يستطيع أن يستخدم اللغة ليتذكر ، أو ليسترجع الأحداث المـاضية ، ليعالج الأشياء والرموز التى لا توجد فى حاضره وجودا واقعيا ، وكذلك ليسقط خبرته المـاضية على المستقبل • أى أن الانسان يستطيع أن يعالج الأمور والأشياء على مستوى تخيلى ، وبمعنى آخر يستطيع أن يعالج من الأمور ما ليس له وجود فعلى فى الواقع المحسوس •

وهذه القدرة الرمزية هى ما يجعل الانسان الكائن الوحيد الذى يمكنه أن يفكر فى المـاضى ، وفى المستقبل ، وفى الحاضر غير الحسى • وتساعده قدرته اللغوية هذه على أن يتعلم ، ليس فقط من خبرته هو ، بل أيضا من خبرة الآخرين الذين عاشوا فى أزمنة غير أزمنته ، وفى غير التى يعيش فيهـا •• كذلك تسـاعده هذه القـدرة على أن يتنبأ بما يمكن أن يترتب على سلوكه الخاص قبل أن يسلك ، وأن يكون له مثل عليـا يسلك على أساسها •

هنالك اذن صفات ثلاث أساسية تعتمد على استخدام الرموز وتميز الانســان عن غيره من الكائنات • وهذه الصفات هى :

---

(١) محمد عماد الدين اسماعيل ، **الشخصية والعلاج النفسى** • (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) ص ١٣٨ ــ ١٤٢ •

١ — القدرة على الاستفادة من الخبرة السابقة ، بما فى ذلك خبرة الآخرين •

٢ — والقدرة على التوقع ، والتحكم فى السلوك بناء على التنبؤ بنتائجه قبل وقوعها •

٣ — وأخيرا القدرة على استحضار ما ليس له وجود فى الواقع المحسوس •

هذه هى المجموعة الأولى من الصفات التى ينفرد بها الانسان ويمتاز بها عن باقى أنواع المملكة الحيوانية •

٢ — الانسان كائن اجتماعى :

وثمة مجموعة أخرى من الصفات المميزة للكائن البشرى ، وهى تلك التى تتعلق بفترة طفولته الطويلة ، تلك الفترة التى يظل فيها مدة طويلة معتمدا اعتمادا لا حيلة له فيه على غيره من الكبار •• فليس بين الكائنات الحية الأخرى من تطول طفولته الى هذا الحد • وكلما تعقدت الثقافة زادت فترة الطفولة الانسانية طولا • والحقيقة التى لا تختلف من ثقافة الى أخرى هى أن الطفل الانسانى ، على خلاف ما هو معروف عن صغار أى كائن حى آخر ، يمكث مدة طويلة وهو لا يستطيع أن يشبع حاجاته الأساسية الا عن طريق الكبار المحيطين به •

ويتكون عند الطفل خلال هذه الفترة الطويلة من السنوات التكوينية اتجاهان مهمان : الاتجاه الأول هو أن بقاءه واشباعه لحاجاته لا يمكن أن تتحقق الا عن طريق اعتماده على غيره • أما الاتجاه الثانى فهو أن الانتقال الى مرحلة الرشد ، والتمتع بحقوق الكبار ، واتخاذ مكانتهم ، ترتبط دائما باستمرار تحمل المسئولية والعمل على اشـباع حاجات الآخرين ، ذلك أن شخص الأب ، باعتباره فردا راشدا يتمتع بشىء من القوة والنفوذ والاستقلال ، يرتبط فى ذهن الطفل باستمرار المسئولية والغيرية الى حد ما ، ولو بشكل نسبى •

وتتأكد هذه العلاقة المتبادلة بين الاعتماد على الغير من ناحية ، وبين المسئولية من ناحية أخرى ، سواء على مستوى الأطفال والآباء أو على مستوى الكبار الراشدين ، كلما تعقدت الحضارة •• ففى المجتمعات البدائية أو البسيطة يتحمل المسئولية أفراد محدودون ، بمعنى أن يأخذ عدد بسيط من الأفراد على عاتقه اشباع الحاجات الضرورية عند بقية

أفراد المجتمع • ولكن فى المجتمعات المتحضرة ، فان التقدم التقنى (التكنولوجى) قد جعل من الضرورى تقسيم العمل بشكل واضح أصبح لا مفر فيه من أن يعتمد كل فرد فى المجتمع على غيره من الناس ، وأن يكون فى ذات الوقت مسئولا عن جزء آخر من المجتمع الذى يعيش فيه • والفرق بين المجتمعات البسيطة والمتحضرة هو فرق فى الدرجة فقط •• فأفراد الانسان مهما يكن نوع المجتمعات التى يعيشون فيها ، لابد وأن يعتمدوا بعضهم على البعض الآخر ، سواء أكان ذلك على مستوى علاقة الآباء بالأبناء ، أم على مستوى العلاقات الاجتماعية فيما بين الراشدين •

هذا النمط المميز للحياة الانســانية هو ما يضفى عليها الصفة الاجتماعية ، تلك الصــفة التى لا توجد عند أى نوع آخر من المملكة الحيوانية • فان ما نشاهده من تقسيم العمل بين بعض الحيوانات المعروفة ــ كالنحل مثلا ــ لا يمثل هذه الاجتماعية التى توجد عند أفراد الانسان ، حيث ان توزيع العمل عند هذه الحشرات يتم فى قوالب محددة من السلوك الغريزى الوراثى ، ولا يدل على وجود القدرة على تبادل المسئولية والاشتراك فيها كما هو موجود عند الانسان •

هذه هى الامكانيات التى يتميز بها الانســان عن أفــراد المملكة الحيوانية •• وعلى أساس هذا التحديد للامكانيات الانسانية يمكن أن نقيم مفهوما واضحا للشخصية السوية ، ويمكن كذلك أن نفهم معنى السلوك السوى الايجابى المتكامل بطريقة مفيدة ومثمرة • ذلك أنه يمكننا الآن أن نســتنبط من هذه الخصــائص التى تتميز بها الطبيعة الانسانية صفات معينة ، لو تحققت فى أحد الأشخاص ، أو أمكن غرسها فيه بطريقة ما ، لكان هذا الشخص هو ما نعنيه عندما نتحدث عن الشخص السوى ، ولكان سلوكه هو ما نقصده عندما نتكلم عن السلوك المتكامل •

وهذا التصور الايجابى للشخصية السوية ، يختلف عن ذلك التصور السلبى القائم على مجرد اختفاء الأعراض المرضية • وفى هذا التصور الايجابى يمكننا أن نعرف على وجه التحديد ما يجب علينا عمله لكى نساعد الأفراد حتى يكونوا أسوياء •

❊ ❊ ❊

الخلاصـــة

يتلخص ما سبق مناقشته خلال هذا الفصل فى النقاط الآتية :

١ ـــ الانسان فى هذا الكون فريد فى طبيعته ووظيفته وغاية وجوده ومصيره • وهو مخلوق مختلف تماما عن سائر المخلوقات التى نعرفها ولا نعرفها ••

ولم يخلق مصادفة أو جزافا ، بل مخلوق بقدر ، ومخلوق لغاية •• وهذا ما يوضحه الدين الاسلامى حين تحدث القرآن الكريم عن الانسان باعتباره سيدا لهذه الأرض وخلافته فيها عن الخالق سبحانه ، وكل ما فى الأرض مسخر له • وأوتى من العـــلم بشئون هذه الأرض هبة من الله جلت قدرته •• ولكن هذا الانسان ـــ فى التصور الاسلامى ـــ على الرغم مما استودعه الله فيه من أمانة الخلافة فى هذا الملك العريض ، فهو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحيانا ، ويحكمه هواه أحيانا ، ويقعد به ضعفه أحيانا ، ويلازمه جهله بنفسه فى كل حين ••

٢ ـــ عندمـــا نتحدث عن خصـــائص النفس البشرية ، نجـــد أن « الغزالى » قد استخدم للدلالة عليها أربعة ألفاظ هى : النفس ، والقلب ، والروح ، والعقـــل • وقد وردت هذه الألفاظ ـــ عدا لفظ « العقل » ـــ فى القرآن الكريم على النحو التالى :

(أ) ورد لفظ « النفس » فى القرآن الشريف على صور عديدة فردية وجمعية ، للدلالة على طوية الانسان وجوهره أو للدلالة على شىء معين • كما وردت للدلالة على الذات الالهية • واستعملت للدلالة على ضمير الانسان وطويته • كما استخدمت للدلالة على النفس كأمر خاص فى الانسان ، قد يكون جوهرا قائما بذاته ، وقد يكون مجرد تعبير عن حقيقة الانسان وماهيته ••

(ب) عندما ورد لفظ « القلب » فى القرآن الكريم فان أكثر معانيه تدور حول المعنى الوجدانى والعقلى فى الانسان • لذلك يبرز كأساس للفطرة السليمة ، والعواطف المختلفة ، ومحل الهداية والايمان والارادة والضبط والفهم ••

(ج) لم يتكرر لفظ « الروح » فى القرآن الا قليلا ، ولكن استعماله كان متنوعا • فقد ورد ليفيد بافاضة الحياة من الله على الانسان ، وللدلالة على خلق بعض الأنبياء كعيسى عليه السلام ، وللدلالة أيضا على الوحى ••

(د) لم يرد لفظ « العقل » كمصدر فى القرآن اطلاقا ، ولكن ورد فعل العقل بمختلف اشتقاقاته ، وكلها تدل على عنصر التفكير فى الانسان •

٣ — للنفس علامات سبعة هى : أمارة ، ولوامة ، وملهمة ، ومطمئنة ، وراضية ، ومرضية ، وكاملة • وينبغى البدء بعلاج النفس « الأمارة » ، لأنها لم تتخلص بعد من الضعف والجهالة ، وتنقاد الى الحس الظاهرى ، وتميل الى التعالى والغرور والأنانية ، دون أن تلقى أى اهتمام للقيم والمبادىء والمثل والفضائل • ووجد أئمة الاسلام أنه لعلاج هذه الشخصية يجب البدء بعملية تخليصها من الصفات المذمومة ثم غرس الصفات المحمودة فيها •

٤ — عندما نتساءل عن خصائص الطبيعة البشرية التى يتحدد من خلالها مدى تكامل الفرد بقدر ما ينعكس من سلوكه ، يتضح لنا ما يأتى :

(أ) « الانسان كائن مفكر » •• فهو قادر على الكلام ، فهو يستخدم اللغة ليتذكر أو ليسترجع الأحداث الماضية ، ليعالج الأشياء والرموز التى لا توجد فى حاضره وجودا واقعيا ، وكذلك ليسقط خبرته الماضية على المستقبل • وهناك صفات ثلاث تعتمد على استخدام الرموز وتميز الانسان عن غيره من الكائنات وهى : (١) القدرة على الاستفادة من الخبرة السابقة • (٢) والقدرة على التوقع والتحكم فى السلوك • (٣) والقدرة على استحضار ما ليس له وجود فى الواقع الملموس ••

(ب) « الانسان كائن اجتماعى » •• بفضل فترة الطفولة الطويلة للانسان التى يظل خلالها معتمدا على غيره من الكبار • ويتكون عند الطفل خلال هذه الفترة اتجاهان هامان هما : أن بقاءه واشباعه لحاجاته لا يتحقق الا من خلال اعتماده على غيره • والاتجاه الثانى هو أن الانتقال الى مرحلة الرشد والتمتع بحقوق الكبار يرتبط باستمرار تحمل المسئولية

والعمل على اشباع حاجات الآخرين •• وهذا النمط هو ما يضفى على الحياة الانسانية صفة « الاجتماعية » •

ويتضح مما سبق أن الدين الاسلامى وضع الأسس والمبادىء الخاصة بالطبيعة البشرية ، وتمثل ذلك فيما ورد فى آيات القرآن الكريم ، وما ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة •• وهى أسس ومبادىء قائمة على الخلق والابداع ، وادراك الخالق لطبيعة الانسان — الذى خلقه وكونه — وأوضح له طريق الخير وطريق الشر ، وحذره من وساوس الشيطان •• ولكنه على الرغم من ذلك اتبع غواية الشيطان ووقع فى الخطأ ، وكان هذا فى بداية خلق الانسان « قصة آدم » •

ولقد بذلت محاولات عديدة — على مر الأعوام والسنين — لتأصيل المبادىء الانسانية •• ولكن لا يزال الانسان قاصرا عن فهم ذاته ومكونات نفسه ، وعاجزا هذا العجز الظاهر عن ادراك خبايا الطبيعة البشرية •• وسيظل هكذا الى يوم الدين •• « **وما أوتيتم من العلم الاقليلا** » (الاسراء : ٨٥) صدق الله العظيم ••

* * *

الفصل الثالث

ونفس وما سواها

١ — « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » (الشمس : ٧ — ١٠) .

ان الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه . ونعنى بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال .. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه الى الخير والى الشر سواء . وأن هذه القدرة كامنة فى كيانه ، يعبر عنها القرآن الكريم بالالهام تارة : **« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها »** ، ويعبر عنها بالهداية تارة : **« فهديناه النجدين »** (البلد : ١٠) .. فهى كامنة فى تصميمه فى صورة استعداد .. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية انما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها ، ولكنها لا تخلقها خلقا .. لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعا ، وكامنة الهاما .

وهناك الى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات الانسان ، هى التى تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر ، فقد أفلح . ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب : **« قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها »** ..

هنالك اذن تبعة مترتبة على منح الانسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه .. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير وفى حقل الشر سواء . فهى حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب ..

ورحمة من الله بالانسان لم يدعه لاستعداد فطرته الالهامى ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف .. فأعانه بالرســالات التى تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له موجبات الايمان ودلائل الهدى فى نفسه وفى الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشى الهوى فيبصر الحق فى صورته الصحيحة .. وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشــفا لا غبش فيه ولا شبهة ، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وادراك لحقيقة الاتجاه الذى تختاره وتسير فيه ..

وهذه فى جملتها هى مشيئة الله بالانسان ، وكل ما يتم فى دائرتها فهو محقق لمشيئة الخالق وما قدره للانسان(١) .

* * *

٢ — « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك » (الانفطار : ٦ — ٨) .

ان هذا الخطــاب ينادى فى الانســـان أكرم ما فى كيانه ، وهو « انسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ، وارتفع الى أكرم مكان ، وتجلى فيها اكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .. ثم يعقبه ذلك العتاب الجميــل : « **ما غرك بربك الكريم** » ؟ يا أيها الانسان الذى تكرم عليك ربك راعيك ومربيك ، بانسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة .. يا أيها الانسان ما الذى غرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ؟ وهو ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من فضله وكرمه وبره ، ومن هذا الاغداق انسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغى وما لا ينبغى فى جانبه ؟

ثم يفصل شيئا من هذا الكرم الالهى المغدق على الانسان المتمثل فى انسانيته التى ناداه بها فى صدر الآية .. فيشير فى هذا التفصيل الى خلقه وتسويته وتعديله ، وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته . فاختياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الانسان الذى لا يشكر ولا يقــدر .

---

(١) سيد قطب ، **فى ظلال القرآن** . جـ ٦ ، ص ٣٩١٧ — ٣٩١٨ .

« يا أيها الانســـان ما غرك بربك الكريم • الذى خلقك فســواك فعدلك » ؟ •• ان خلق الانسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم ، الذى أكرمه بهذه الخلقة ، تفضلا ورعاية منه •

وان الانسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وان عجائب الابداع فى خلقه لأضخم من ادراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله •• وان الجمال والســـواء والاعتدال لتبدو فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء •

هذه الأجهزة العامة لتكوين الانسان الجسدى •• الجهاز العظمى ، والجهاز العضلى ، والجهاز الهضمى ، والدورة الدمويـــة ، والجهاز التنفسى ، والجهاز التناسلى ، والجهاز البولى ، والجهاز العصبى ، والأجهزة الحسية •• كل منها عجيبة لا تقاس اليها كل العجائب الصناعية التى يقف الانسان مدهوشا أمامها ، وينسى عجائب ذاته وهى أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس !

وكل جهاز من أجهزة الانسان يقال فيه الشىء الكثير • ولكن هذه الأجهزة — على اعجازها الواضح — قد يشاركه فيها الحيوان فى صورة من الصور • انما تبقى له هو خصائصه العقلية والروحية الفريدة التى هى موضع الامتنان فى هذه السورة ، بصفة خاصة : **« الذى خلقك فسواك فعدلك »** بعد ندائه : **« يا أيها الانسان »** •• هذا الادراك العقلى الخاص الذى لا ندرى كنهه ، اذ أن العقل هو أداتنا لادراك ما ندرك ، والعقل لا يدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك !

هذه المدركات •• نفرض أنها كلها تصل الى المخ عن طريق الجهاز العصبى الدقيق ، ولكن أين يختزنها ؟ ! انه لو كان هذا المخ شريطا مسجلا لاحتاج الانسان خلال سنوات عمره الى ملايين الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات والمعانى والمشاعر والتأثرات ، لكى يذكرها بعد ذلك ، كما يذكرها فعلا بعد عشرات السنين •• ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفردة ، والمعانى المفردة ، والأحداث المفردة ، والصور

المفردة ، ليجعل منها ثقافة مجمعة ، ثم ليرتقي من المعلومات الى العلم ؟ ومن المدركات الى الادراك ؟ ومن التجارب والخبرات الى المعرفة ؟

هذه هي احدى خصائص الانسان المميزة .. وهي مع هذا ليست أكبر خصائصه ، وليست أعلى مميزاته .. **فهنالك ذلك القبس العجيب من روح الله** . هنالك الروح الانساني الخاص ، الذي يصل هذا الكائن بجمال الوجود ، وجمال خالق الوجود ، ويمنحه تلك اللحظات المجنحة الوضيئة من الاتصال بالمطلق الذي ليس له حدود ، بعد الاتصال بومضات الجمال في هذا الوجود ..

هذا الروح هو هبة الله الكبرى للانسان ، وهو الذي به صار انسانا . وهو الذي يخاطبه باسمه : « **يا أيها الانسان ..** » .. ويعاتبه ذلك العتاب المخجل : « **ما غرك بربك الكريم** » ؟ .. هذا العتاب المباشر من الله سبحانه للانسان ، حيث يناديه — جل جلاله — فيقف أمامه مقصرا مذنبا مغترا غير مقدر لجلال الله ، ولا متأدب في جنابه .. ثم يواجهه الخالق بالتذكير بالنعمة الكبرى ، ثم التقصير وسوء الأدب والغرور !

انه عتاب مذيب .. حين يتصور « الانسان » حقيقة مصدره ، وحقيقة مخبره ، وحقيقة الموقف الذي يقفه بين يدي ربه ، وهو يناديه ذلك النداء ، ويعاتبه ذلك العتاب :

« **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك** »(١) .

* * *

٣ — « سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » (الأعلى : ١ — ٣) .

ان هذا الافتتاح ، بهذا المطلع الرخي المديد ، ليطلق في الجو ابتداء أصداء التسبيح ، الى جانب معنى التسبيح . وان هذه الصفات التي تلي الأمر بالتسبيح لتحيل الوجود كله معبدا يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ، ومعرضا تتجلى فيه آثار الصانع المبدع « **الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى** » .

---

(١) المرجع السابق . ج ٦ ، ص ٣٨٤٧ — ٣٨٥٠ .

فاذن الله لعباده بأن يحمدوه ويسبحوه احدى نعمه عليهم وأفضاله . انه اذن الاتصال به — سبحانه — فى صورة مقربة الى مدارك البشر المحدودة . صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته .. فى صفاته .. فى الحدود التى يملكون أن يتطلعوا اليها . وكل اذن للعباد بالاتصال بالله فى أية صورة من صور الاتصال ، هى مكرمة له وفضل على العباد .

« الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » ..

الذى خلق كل شىء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ غاية الكمال الذى يناسبه .. والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه الى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه اليه أيضا ..

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شىء فى هذا الوجود ، يشهد بها كل شىء فى رحاب الوجود من الكبير الى الصغير ، ومن الجليل الى الحقير .. كل شىء مسوى فى صنعته ، كامل فى خلقته ، معد لأداء وظيفته ، مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق .. وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق ، ميسرة لكى تؤدى فى تجمعها دورها الجماعى ، مثلما هى ميسرة فرادى لكى تؤدى دورها الفردى ..

فالذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وألكتروناتها ، شأنها شأن المجموعة الشمسية فى تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها ، وهى تعرف طريقها وتؤدى مثلها وظيفتها .. والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها كلها ، شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة ..

هذه الحقيقة يدركها القلب البشرى جملة حين يتلقى ايقاعات هذا الوجود ، وحين يتدبر الأشياء فى رحابه بحس مفتوح . وهذا الادراك الالهامى لا يستعصى على أى انسان فى أية بيئة ، وعلى أية درجة من درجات العلم الكسبى ، متى تفتحت منافذ القلب ، وتيقظت أوتاره لتلقى ايقاعات الوجود[1] .

* * *

(١) المرجع السابق . جـ ٦ ، ص ٣٨٨٣ — ٣٨٨٤ .

٤ — « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » .
(الانشقاق : ٦)

يا أيها الانسان .. الذى خلقه ربه باحسان ، والذى ميزه بهذه « الانسانية » التى تفرده فى هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه ، وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه ، وأودعه القدرة على الاتصال به ، وتلقى قبس من نوره ، والفرح باستقبال فيوضاته ، والتطهر بها أو الارتفاع الى غير حد ، حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه ، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

يا أيها الانسان .. انك كادح حتى فى متاعك .. فأنت لا تبلغه فى هذه الأرض الا بجهد وكد . ان لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر .. الواجد والمحروم سواء ، انما يختلف نوع الكدح ولون العناء . وحقيقة الكدح هى المستقرة فى حياة الانسان .. ثم النهاية فى آخر المطاف الى الله سواء .

يا أيها الانسان .. انك لا تجد الراحة فى الأرض أبدا . انما الراحة هناك ، لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام .. التعب واحد فى الأرض والكدح واحد — وان اختلف لونه وطعمه — أما العاقبة فمختلفة عندما تصل الى ربك .. فواحد الى عناء دونه عناء الأرض ، وواحد الى نعيم يمسح على آلام الأرض كأن لم يكن كدح ولا كد ..

يا أيها الانسان .. الذى امتاز بخصائص « الانسان » .. ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذى خصك به الله ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه(١) ..

* * *

٥ — « ان كل نفس لما عليها حافظ » (الطارق : ٤) .

ما من نفس الا عليها حافظ ، يراقبها ، ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار ، وهى التى يناط بها العمل والجزاء .. ليست هناك فوضى اذن ! والناس ليسوا مطلقين فى الأرض هكذا بلا حارس ، ولا مهملين

---

(١) المرجع السابق . ج ٦ ، ص ٣٨٦٦ .

فى شعابها بلا حافظ ، ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب .. انما هو الاحصاء الدقيق المباشر ، والحساب المبنى على هذا الاحصاء الدقيق المباشر .

ويلقى النص ايحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبدا فى خلوة — وان خلت — فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمن من كل طارق . هنالك الحافظ الذى يشق كل غطاء وينفذ الى كل مستور ، كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليـــل الساتر .. وصنعة الله واحدة متناسقة فى الأنفس وفى الآفاق[1] .

* * *

٦ — « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (سورة ق : ١٦ — ٢٢) .

ان ابتداء الآية : « **ولقد خلقنا الانسان** » يشـــير الى المقتضى الضمنى للعبارة . فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها ، وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشىء مادتها ولم يزد عن تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشىء الموجد الخالق ؟ ان الانسان خارج من يد الله أصلا ، فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله .

« **ونعلم ما توسوس به نفسه** » .. وهكذا يجد الانسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله — سبحانه — تمهيدا ليوم الحساب ..

« **ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** » .. وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة

---

(١) المرجع السابق . جـ ٦ ، ص ٣٨٧٨ .

وهدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها ، بل ما جرؤ على هاجسة فى الضمير لا تنال القبول . وانها وحدها لكافية ليعيش بها الانسان فى حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة .

ولكن القرآن الكريم يستطرد فى احكام الرقابة .. فاذا الانسان يعيش ويتحرك ويأكل ويشرب وينام ويتحدث ، ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها : **« اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد »** ..

وحسبنا أن نعيش فى ظلال هذه الحقيقة المصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون فى سجل حسابنا ، بين يدى الله الذى لا يضيع عنده شىء ..

والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وبتوجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سبيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ما شعروا ..

وعن الامام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه الى يوم يلقاه . وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه الى يوم يلقاه » (رواه أحمد والترمذى والنسائى) .

تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الانسان صفحة الاحتضار :

« وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » ..

فالموت أشد ما يحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره ، ولكن أنى له ذلك ، والموت طالب لا يمل الطلب ، ولا يبطىء الخطى ، ولا يخلف الميعاد . وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله . ان للموت لسكرات » .. يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق الى لقاء ربه .

ومن سكرة الموت ، الى وهلة الحشر ، وهول الحساب :

« ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد • وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد • لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد • وقال قرينه هذا ما لدى عتيد • ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد • مناع للخير معتد مريب • الذى جعل مع الله الها آخر فالقياه فى العذاب الشديد • قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد • قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد • ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » (سورة ق : ٢٣ — ٢٩) •

وهو مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب • وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » ؟ قالوا : يا رسول الله •• كيف نقول ؟ •• قال صلى الله عليه وسلم : « قولوا •• حسبنا الله ونعم الوكيل » •• فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل •• (رواه الترمذى) •

جاءت كل نفس •• فالنفس هنا هى التى تحاسب وهى التى تتلقى الجزاء ، ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها •• هذا مشهد أشبه شىء بالسوق للمحاكمة ، ولكن بين يدى الخالق الجبار •• وفى هذا الموقف العصيب يقال له : « **لقد كنت فى غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** » •• هذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها • الآن فانظر ، فبصرك اليوم حديد[1] !

* * *

٧ — « وأن ليس للانسان الا ما سعى • وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى • وأن الى ربك المنتهى • وأنه هو أضحك وأبكى » (النجم : ٣٩ — ٤٣)

ما يحسب للانسان الا كسبه وسعيه وعمله ، ولا يزاد عليه شىء من عمل غيره ، ولا ينقص منه شىء لينااله غيره • وهذه الحياة الدنيا

---

(١) المرجع السابق • جـ ٦ ، ص ٣٣٦٢ — ٣٣٦٤ •

هى الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى ، فاذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل ، الا ما نص عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به »(١) .

« وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ..

فلن يضيع شىء من السعى والعمل والكسب ، ولن يغيب شىء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرىء جزاء سعيه وافيا كاملا لا نقص فيه ولا ظلم .. وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، الى جانب عدالة الجزاء .. فتتحقق للانسان قيمته الانسانية القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسئولا مؤتمنا على نفسه ، كريما تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل ، وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء .

« وأن الى ربك المنتهى » ..

فلا طريق الا الطريق الذى ينتهى اليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مأوى الا فى داره : فى نعيم أو جحيم .. ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها فى تكييف مشاعر الانسان وتصوره .. فحين يحس أن المنتهى الى الله — منتهى كل شىء وكل أمر وكل أحد — فانه يستشعر من أول الطريق نهايته التى لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ، أو يحاول فى هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق !

وبعدما يصل بالقلب البشرى الى نهاية المطاف يكر راجعا به الى الحياة ، يريه فيها آثار مشيئة الله ، فى كل مرحلة ، وفى كل حال .

« وأنه هو أضحك وأبكى » ..

وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة ، ومن خلاله تتبعث صور وظلال موحية مثيرة .. أضحك وأبكى .. فأودع هذا الانسان خاصية الضحك وخاصية البكاء . وهما سر من أسرار التكوين البشرى لا يدرى أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان فى هذا الجهاز المركب المعقد ، الذى لا يقل

---

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه — باسناده — عن أبى هريرة .

تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوى . والذى تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه ، وتتشابكان وتتفاعلان فى احداث الضحك واحداث البكاء .

وأضحك وأبكى .. فأنشأ للانسان دواعى الضحك ودواعى البكاء . وجعله — وفق أسرار معقدة فيه — يضحك لهذا ويبكى لذاك . وقد **يضحك غدا مما أبكاه اليوم ، ويبكى اليوم مما أضحكه بالأمس .. فى غير جنون أو ذهول انما فى الحالات النفسية المتقلبة ، والموازين والدواعى والدوافع والاعتبارات** التى لا تثبت فى شعوره على حال !

وأضحك وأبكى .. فجعل فى اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين ، كل حسب المؤثرات الواقعة عليه .. وقد يضحك فريق مما يبكى منه فريق ، لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك ..

وأضحك وأبكى .. من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره ، فاذا هو باك ، يتمنى ان لم يكن فعل وأن لم يكن يضحك . وكم من ضاحك فى الدنيا باك فى الآخرة حيث لا ينفع البكاء ! ..

هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال .. وغيرها كثير تنبثق من خلال هذا النص القصير ، وتتراءى للحس والشعور ، وتظل حشود منها تبرز من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب ، وكلما تجددت عوامل الضحك والبكاء فى النفوس .. وهذه احدى صور الاعجاز فى القرآن [1] .

* * *

٨ — « ان الانسان لربه لكنود . وانه على ذلك لشـــهيد . وانه لحب الخير لشــديد » (العاديات : ٦ — ٨) .

ان الانسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده فى مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذى يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها ، أو لعله يشـــهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود : **« وانه على ذلك لشهيد »** .. يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال ! ..

---

(١) سيد قطب ، فى **ظلال القرآن** . ج ٦ ، ص ٣٤١٤ — ٣٤١٦ .

« **وانه لحب الخير لشديد** » .. فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير ، ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا دنيويا ..

هذه فطرته .. وهذا طبعه ، ما لم يخالط الايمان قلبه .. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ، ويحيل جحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا . كما يبدل أثرته ايثارا ورحمة ، ويريه القيم الحقيقية التى تستحق الحرص والتنافس والكفاح والكد ، وهى قيم أغلى من السلطة والمتاع الحيوانى بأعراض الحياة الدنيا[1] .

* * *

(١) المرجع السابق . جـ ٦ ، ص ٣٩٥٨ .

مفاهيم نفسية

بعد ذكر الآيات القرآنية التى تعرضت للنفس البشرية فى سوائها وانحرافها ، وخيرها وشرها ، وشرحها ..

يبدو من المفيد أن نناقش أو نبرز المفاهيم النفسية التى وردت سواء فى نص الآيات أو فى تفسيرها .

وتتلخص هذه المفاهيم النفسية فى الآتى :

١ — الاستعدادات .

٢ — السلوك الفطرى والسلوك المكتسب .

٣ — التفكير والادراك والتذكر .

٤ — الأنا الأعلى .

٥ — التوجيه والاختيار .

٦ — الثواب والعقاب .

٧ — الانسان المركب ، والانسان المحقق لذاته .

٨ — الفروق الفردية .

وفيما يلى مناقشة أو شرح مختصر لكل من هذه المفاهيم :

أولا — الاستعداد :

يقصد به امكانية الوصول الى درجة من الكفاية أو القدرة عن طريق التدريب ، سواء أكان هذا التدريب مقصودا أم غير مقصود . وهذا لا يعنى بساطة الاستعداد فقد يكون معقدا ، أى يرتبط بعوامل مختلفة . ويمكن تعريف الاستعداد بأنه السرعة المتوقعة للتعلم فى ناحية من النواحى نتيجة وجود قدرات خاصة عند الشخص ترتبط بالموضوع الذى يتعلمه . ومن أمثلة الاستعدادات : الاستعداد الميكانيكى ، والاستعداد الفنى ، والاستعداد القيادى ، والاستعداد الاجتماعى ، وما أشبه ..

واذا ما تناولنا الاستعداد بشىء من التفصيل ، نجد أنه تكوين أو تركيب يشير الى مجموعة الخصائص التى تميز سلوك الفرد فى مواقف

متشابهة ، بالاشارة الى قدرته على مواجهة بعض المواقف المعينة أو حل بعض المشكلات التى تواجهه مستقبلا •• فاذا قلنا ان لدى الفرد استعدادا ميكانيكيا ، فان هذا يعنى أن عنده القدرة على اكتساب أساليب السلوك المختلفة التى يستلزمها النجاح فى انجاز الأعمال التى يطلق عليها « أعمال ميكانيكية » •• ويرى بعض علماء النفس أن الاستعداد ينبغى أن يتصف بأربع صفات اذا أردنا له تحديدا علميا دقيقا ، وهذه الصفات هى :

١ — أن يكون خاصا بلون معين من ألوان النشاط أو السلوك •

٢ — أن يكون أحادى التركيب أو التكوين •

٣ — أن يكون ثابتا الى حد ما •

٤ — أن يشير الى سهولة تعلم الفرد لاستجابات معينة •

والاستعداد بهذا المعنى مظهر من مظاهر شخصية الفرد ، اذا ما عرفنا الشخصية على أنها التنظيم الكلى للاستعدادات الديناميكية التى تميز فردا عن آخر • وهو أيضا خاصية سلوكية راهنة للفرد ، ولكنها تشير الى امكانيات الفرد مستقبلا(١) •

* * *

ثانيا — السلوك الفطرى والسلوك المكتسب :

اذا أردنا أن نميز بين الكائن الحى والجماد قلنا مثلا ان الأول يتحرك من تلقاء نفسه بينما يظل الثانى فى حالة سكون ، ما دام لم يخرجه من هذه الحالة محرك خارجى •• ولكننا اذا أنعمنا النظر فى سلوك الكائن الحى نرى أن هذا الفرق ليس بالفرق المطلق ، وأن ثمة عوامل خارجية تكون بمثابة ما يحرك الكائن الحى • ومن هذه العوامل التنبيهات الحسية كرائحة ما •• فهنا نرى أن المنبه « المثير » الحسى — وهو نوع من المحرك — يؤدى حينا الى الاستجابة ولا يؤدى اليها حينا

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى** • (القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٦) ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ •

آخر • وتكون الاستجابة ايجابية أو سلبية ، فهى اقدام أو احجام أو سكون •• هذا هو الفرق الأول بين تأثير المحرك فى الجماد وتأثيره فى الكائن الحى • وتؤدى بنا هذه المشاهدة الى استخلاص القانون الآتى :

« فى حالة بقاء الشروط الخارجية ثابتة ، يحدث المحرك نفس الحركة دائما فى الجماد ولا يحدثها دائما فى الكائن الحى » •• ولتوضيح هذا الفرق نطلق على المحرك عندما يؤثر فى الكائن الحى اسم « المنبه » (المثير) •

وهناك فرق آخر بين المحرك والمنبه ، اذ أن علم الفيزياء يقرر أن رد الفعل فى حالة المحرك يكون معادلا للفعل • أما فى الكائن الحى فالأمر على خلاف ذلك ، لأننا اذا قمنا بقياس طاقة المنبه الفيزيائية وطاقة رد الفعل لرأينا تفاوتا عظيما بينهما • ومن هنا نستخلص القانون الثانى الذى يقول : لا يكون رد الفعل فى الكائن الحى معادلا للفعل • ولتوضيح هذا الفرق نطلق على رد الفعل فى الكائن الحى اسم « الاستجابة » •

لهذا يجب أن تحوى سلسلة تفسير السلوك الحلقات الآتية :

المنبه أو المثير « شرط خارجى » — الطاقة الحيوية والتوتر العضلى « شرط داخلى » — الاستجابة •

ويطلق اسم « الدافع » على كل ما يدفع الى النشاط ، حركيا كان أو ذهنيا • ومن هذه الدوافع ما هو « فطرى » ومنها ما هو « مكتسب » •• وعندما يكون فطريا ، فانه يمر بفترة من الكمون قبل أن تتاح له فرصة الاقتراب من بؤرة الشعور — ولا يكون حينئذ خاضعا للتصرف الارادى مباشرة — فيسمى فى هذه الحالة « حافزا » • فاذا صدر عن نشاط الدافع سلوك مقصور على الأعمال البيولوجية ، سمى الدافع « حاجة » كالجوع مثلا •• واذا شمل السلوك دائرة الأعمال الاجتماعية ، سمى الدافع « ميلا » ، وفى هذه الحالة تكون طبيعة الدافع عضوية ونفسية معا • ونذكر من أمثلة الميول : الميول الأنانية « حب الذات » والميول الغيرية « حب الغير » • والميل فطرى فى أصله ، فاذا تبلور فى الشعور وأصبح موضوعا للتصور الذهنى سمى « نزعة » • ومعنى « النزعة » قريب من معنى « الرغبة » ، غير أن موضوع الرغبة أكثر تحديدا وايضاحا

من موضوع النزعة • واذا نمت النزعة وقويت واستقرت تحت تأثير التجارب والخبرات الانفعالية وما يتبعها من تأملات وتفكير تحولت الى « عاطفة » ••

يتبين من هذا أن أساس الفوارق التى ذكرناها بين هذه الكلمات أو المصطلحات النفسية هو مقدار ما يتصف به كل دافع من صفة الشعورية • وهناك فئة أخرى من الدوافع ، مصدرها خارجى لا داخلى ، كالأشياء التى من شأنها تنشيط الدافع الداخلى وارضائه ، أو بعض العوامل الاجتماعية التى توجه النشاط وتعدله كالثواب والعقاب مثلا ، وفى هذه الحالة يسمى الدافع « باعثا » •

ونستطيع أن نفهم الآن الاتجاه الأول الذى تتخذه الحياة النفسية فى رقيها ، وهو الاتجاه من اللاشعور الى الشعور • وينطبق هذا الاتجاه على رقى السلوك فى حياة الفرد البشرى • فكلما صعد الكائن الحى سلم الرقى أصبح فى قدرته أن يبأور الحوافز قبل حلول وقت تنفيذها ، وبالتالى أن يستعد لمواجهة الأحداث قبل وقوعها ، وأن يستخدم الرموز والعلامات التى يستطيع أن يكيف بها سلوكه وأن يضمن التوفيق والنجاح • وعلى ضوء هذا يمكن أن يعرف الشعور من الوجهة الوظيفية بأنه انتظار حدوث اختيار جديد بناء على التأثيرات الحسية أو الادراكية الراهنة •• ونعنى بهذا أن محك الرقى فى السلوك الانسانى هو قابلية الحوافز الفطرية للتغيير والتعديل والتكيف تحت تأثير عوامل التعليم ، أى مرونة الحوافز الفطرية وقابلية الكائن الحى للاستفادة من الخبرات والتجارب السابقة والمعلومات المكتسبة فى معالجة المواقف الجديدة بنجاح •

ولما كان تطور الحياة تطورا تدريجيا ، فمن العسير تحديد الحد الفاصل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب • وكل ما يمكن تقريره بصفة عامة أن السلوك الفطرى هو السلوك المشترك بين جميع أفراد النوع ، أما السلوك المكتسب فهو خاص بالفرد ولا يشمل حتما جميع أفراد النوع الواحد •

والحقيقة الواقعة هى أن التباين الذى يخيل الينا أنه موجود بين السلوك الفطرى والسلوك المكتسب ، ليس بالتباين المطلق ، لأن القوانين

التى تسيطر على نمو السلوك الفطرى هى بعينها التى تسيطر على تكوين السلوك المكتسب •• ومن أهم هذه القوانين : أن النمو يتجه من التعميم الى التخصيص ، ومن الانتشـــار الى التركيز ، ومن الابهـــام الى الوضوح ، ومن التفكك الى التكامل • ومن ناحية أخرى ، فانه من المحال انشـــاء عادة جديدة الا على أساس من الاستعدادات الفطرية • فاكتساب بعض المهارات المركبة كالانزلاق على الجليد مثـــلا ليس سوى تنظيم لحركات المشى[1] •

* * *

ثالثا ــ التفكير والادراك والتذكر :

يستعمل لفظ « التفكير » فى الحديث الجارى للدلالة على عمليـــات عقلية مختلفة ، تثيرها مواقف سلوكية متباينة • فللتفكير معنى واسع يطلق على كل ما يجول فى الذهن من خواطر وسوانح وصور وذكريات ، ومعنى ضيق ينطبق خاصة على العمليات العقلية من حكم وتجريد وتعميم وتمثيل واستدلال للوصول الى نتيجة ما •

ومن مراتب التفكير الأولى البسيطة أن تخطر الفكرة بطريقة تلقائية بحيث لا يشـــعر بها الانســـان • وقد يطلق التفكير على عملية التذكر •• وفى هذا اشارة الى أن التفكير لابد له من أن يعتمد على الذكريات وعلى المعلومات للوصول الى حل المشكلة • وقد يدوم التفكير طويلا ويتناول أمورا مجهولة ، محاولا أن يقرر درجة احتمال وقوعها أو عدم احتماله •

ومن أبرز صفات التفكير أن يكون فى بادىء الأمر حديثا بين المرء ونفسه ، وقد قال بعض القدماء : « انى أجد الانسان ونفسه كجارين متلاصقين ، يتلاقيان فيتحدثان ، ويجتمعان فيتمازجان • وهذا يدل على بينونة بين الانسان ونفسه » •• وفى هذا المعنى يقول عباس العقاد ما نصه : « وهنا دارت فى سريرة هذا الرجل ــ هذا الرجل الواحد ــ مناقشة عنيفة طويلة ، كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه ، وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ، ويستميله

---

(١) يوسف مراد ، **مبادىء علم النفس العـــام** • الطبعـــة الثالثة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧) ، ص ٣٨ ــ ٤٤ •

الى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه فى هذا الحوار من أساليب الاقناع والاغراء والرياء والتصريح » (سارة : ص ١٨ — ١٩) ••

غير أن التفكير لا يقتصر مجراه على هذا النوع الصريح من الحوار الداخلى ، أو من الحديث الصامت أو المسموع • فقد يتمثل فى الخارج ، ويبحث عن مسالكه ، عن طريق المعالجة اليدوية والمحاولات الحركية • وفى هذه الحالة يكون تفكيرا ضمنيا — قد تفصح عنه العبارة اللفظية أو لا تفصح — مندمجا فى السلوك الحركى عندما يعالج الشخص مشكلة ميكانيكية •

ويمكن تلخيص أهم الآراء المتعلقة بالتفكير فى النقاط الآتية[1] :

١ — التفكير هو ضرب من السلوك ، ومرحلة من سلوك متصل الحلقات كأنه حديث يدور بين الشخص ونفسه أو بين شخصين مختلفين • ويمتاز التفكير فى صميمه بكونه خفيا مضمرا ••

٢ — يلاحظ أن التفكير اما أن يسبق الحديث أو يصاحبه ، فهو كسائر ضروب السلوك المختلفة فى حاجة الى أداة تعبر عنه ، وهذه الأداة هى اللغة • غير أن اللغة لا تتبع التفكير كظله ، ولا تطابق الألفاظ المعانى دائما تمام المطابقة • فالتفكير أسرع من أن تلحق به الألفاظ وأغزر مادة من أن تفرغ كل دقائقه فى قوالب اللغة •

٣ — فى قدرة الشخص أن يوجه تفكيره وأن يحول مجراه ، كما أن فى قدرته — الى حد كبير — أن يخفيه أو أن يعبر عنه • وقد تتضارب الأفعال الارادية والأفعال الآلية فى مجال التفكير ومجال التعبير اللغوى ، اذ أن هناك خواطر تلقائية تقتحم مسرح الذهن وتحرك الآليات اللفظية ، فتفلت الكلمة أو ينطلق السؤال قبل أن يقوى المتكلم على تدبير الأمر • ومن الأدلة القاطعة على أن التعبير اللغوى يخضع لسلطان الارادة كما يخضع له التفكير مقدرة الانسان على الكذب • ولعل الدافع الأول على الكلام هو طلب الحاجة والاستغاثة والاخبار ، غير أن الحياة الاجتماعية التى لولاها لما كان للكلام وللتعبيرات اللغوية أن تنمو وتتشعب ، قد أدت — بتطورها وتعقد مظاهرها — الى خلق

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ .

دوافع أخرى ، فيها من العبث والمراوغة والاغراء ما يطغى أحيانا على دوافع الجد والصراحة وحب الحقيقة • حتى أنه مما يميز الانسان عن الحيوان أنه وحده الذى فى امكانه أن يتعمد الكذب •

٤ — لا يثار التفكير الا لارضاء حاجة أو رغبة ، فهو وسيلة للوصول الى غرض معين • وقد قيل بحق ان الحاجة أم الاختراع ، ويمكن أن يقال كذلك ان الحاجة أم التفكير ، لأنه من أهم وسائل حل المشاكل وأسرعها ، كما أنه الوسيلة الوحيدة للاختراع والابداع •

٥ — وللتفكير من حيث هو عملية عقلية أدوات يستخدمها ، وهذه الأدوات هى ما يعرف بالمعانى وما يقابلها فى اللغة من ألفاظ أو صور لفظية • والمعانى وعباراتها اللفظية هى رموز تحل محل الأشياء المرموز اليها • ويستعاض بالمعانى والألفاظ أثناء التفكير عن الأشياء والمواقف الواقعية ، كما أنه يستعاض بالتفكير عن القيام الفعلى بمعالجة الأشياء والمواقف الخارجية ••

ومن أقوى الأمثلة دلالة على طبيعة التفكير من حيث هو سلوك يستخدم المعانى والرموز ، أمثلة حل المسائل الرياضية بواسطة الأرقام التى هى من بين الرموز أكثرها تجريدا وتعميما ••

٦ — وأخيرا يقتضى التفكير لكى يكون تأمليا صريحا ، أن يكون الفكر مميزا من محتوياته ومن موضوعات التفكير • أى أنه من الضرورى أن تتلاشى الصلة التى تربط بين الشخص وبين الأشياء الخارجية التى تدخل فى دائرة مقتنياته ، وأن يستعاض عن الأشياء برموزها • وبعبارة أخرى ، لابد من أن يكون موقف المفكر عندما يريد أن يرتفع الى مستوى العلم ، شبيها بموقف الزاهد الذى يدير بصره عن الماديات ليتأمل فى المعنويات والحقائق العقلية •

يطلق « الادراك » اصطلاحا فى علم النفس على تلك العملية العقلية التى تتم بها معرفتنا للعالم الخارجى عن طريق التنبيهات الحسية • كأن أدرك أن هذا الشىء الذى أمامى هو « كتاب » ، وأن لهذا الكتاب مميزات خاصة من لون وطول وعرض وسمك ، ومن وضع بالنسبة الى وبالنسبة الى المكتب والى ما يحيط به من أشياء • ولا يقتصر ادراكى لهذا الكتاب على هذه الخصائص الحسية ، بل يشمل أيضا معرفتى

استخدام هذا الشيء •• فانى أدرك أن هذه الأشكال السوداء ــ كلمات الكتاب ــ رموز تفيد معنى معينا ، وأن هذا المعنى يرتبط بمعانى أخرى تثار تلقائيا أو أعمد أنا الى استحضارها ، وقد تحملنى هذه المعانى الى القيام بسلوك معين •

وعلى ذلك يمكن تعريف الادراك بأنه « نوع من الاستجابة ، لا لأشكال من حيث هى مجرد أشكال حسية ، بل لرموز وأشياء • وترمى هذه الاستجابة الى القيام بضرب معين من السلوك » • ويتوقف نوع الاستجابة على الشروط الآتية :

١ ــ طبيعة المنبه الخارجى •
٢ ــ ما جهزت به من آلات حاسة •
٣ ــ حالتى الشعورية الراهنة •
٤ ــ معلوماتى وتجاربى السابقة(١) •

يستخدم الشخص فى تفكيره وفى سلوكه اليومى شتى المعلومات المكتسبة دون أن يفطن الى أنها مكتسبة أو يذكر ظروف اكتسابها • ويجب أن نميز فى بادىء الأمر بين درجات « التذكر » المختلفة •• فهناك ما يمكن تسميته « بالاسترجاع التلقائى » ، وهو خطور الذكريات فى الذهن بدون أن يكون هناك دائما مناسبات ظاهرة لخطورها • وقد لا يوفق الشخص فى الكشف عن بواعثها الا بعد تحليل طويل ، وربما لا يصل به هذا التحليل الى حكم يقينى قاطع • فوصف هذا النوع من التذكر بكونه تلقائيا هو اعتراف ضمنى بجهل ظروف الاسترجاع الخفية ، ويكون الاسترجاع التلقائى بمثابة عملية تداع وترابط • أما ما يقابل الاسترجاع التلقائى فهو ما يعرف « بالتذكر المتعمد » أو « بالاستدعاء » • وتبتدىء عملية الاستدعاء فى المجال الذهنى بالبحث عن الذكرى ، وقد يؤدى هذا البحث الى القيام بالبحث فى المجال الادراكى الخارجى لمساعدة البحث الذهنى وتأييد ما قد يبدو للشخص بأنه هو الشىء الذى يبحث عنه •

والاستدعاء هو استرجاع الذكريات مع ما يصاحبها من ظروف الزمان والمكان ، وبالاستدعاء تنتقل عملية التذكر من عالم المدركات

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

الخارجية الى عـالم التصـورات الذهنية مع تحـديد محتويات هذه التصورات فى الزمن المـاضى ، لا فى الحاضر والا نكون بازاء عملية « ادراك » ، ولا فى المسـتقبل والا نكون بازاء عمليـة « تخيل » • والاستدعاء هو دائما نوع من الاستجابات تثيره تنبيهات مختلفة • ويمكن تقسـيم مؤثرات الاستدعاء الى أربعة أقسام هى :

١ — المؤثرات الناشئة عن الحياة الاجتماعية . كالأحاديث التى تدور فى قاعة الجلوس أو حول مائدة الطعام •

٢ — المؤثرات المـادية التى تحيط بنا •

٣ — العوامل العضوية والوجدانية •

٤ — سلوك الشخص نفسه(١) •

* * *

رابعا — الأنا الأعلى :

من وجهة نظر « مدرسة التحليـل النفسى » : تتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية : « الهو » Id و « والأنا » Ego « والأنا الأعلى » Super-Ego وبالرغم من أن كل جزء من هـذه الأجزاء للشخصية الكلية له وظائفه وخصـائصه ومكوناته ودينامياته ، فانها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا ، بحيث يتعذر فصل تأثير كل منها ووزن اسهامه النسبى فى سلوك الانسان • ان السـلوك — فى الغالب — هو محصلة تفاعل بين هذه النظم الثلاثة ، ونادرا ما يعمل أحد هذه النظم بمفرده دون النظامين الآخرين •

« الهو » : هو النظام الأصلى للشخصية ، ويتكون من كل ما هو موروث وموجود سيكولوجيا منذ الولادة • فهو مستودع الطاقة النفسية ، كما أنه يزود العمليـات التى يقوم بها النظامان الآخران بطاقاتها • و « الهو » وثيق الصلة بالعمليـات الجسمية التى يستمد منهـا طاقاته ، ويطلق عليه اسم « الواقع النفسى الحقيقى » لأنه يمثل الخبرة الذاتية للعـالم الداخلى ولا تتوفر له أية معرفة بالواقع الموضوعى •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ — ٢٢٣ •

ان « الهو » لا قبل له بتحمل تزايد الطاقة التى يعانيها بوصفهـا حالات من التوتر غير المريح • ونتيجة لذلك ، فانه عندما يتزايد مستوى التوتر لدى الكائن الحى — سواء أكان ذلك راجعا الى تنبيه خـارجى أم الى مثيرات داخلية — فان « الهو » يعمـل بطريقة من شأنها تفريغ التوتر مباشرة وعودة الكائن الحى الى مستوى ثابت منخفض ومريح من الطاقة • ويسمى مبدأ خفض التوتر الذى يعمل « الهو » وفقه « مبدأ اللذة » •

« الأنا » : يخرج « الأنا » الى الوجود لان حاجات الكائن البشرى تتطلب تعاملات مناسـبة ازاء عـالم الواقع الموضوعى • فالشخص الجائع عليه أن يبحث عن الطعام وأن يحصل عليـه وأن يأكله ، حتى يستطيع التخلص من التوتر الناتج عن الجوع • ويعنى هذا أن عليـه أن يتعـلم كيف يفرق بين صورة عن الطعام مصدرها الذاكرة وبين ادراك فعلى للطعام كما يوجد فى العـالم الخارجى • وما أن يتم هذا التمييز الحاسـم حتى يصبح لزاما عليـه أن يحول الصورة — الذهنية — الى ادراك ، يتم بتعيين مكان الطعام فى البيئة •

ان الفرق الأساسى بين « الهو » و « الأنا » أن الأول — الهو — لا يعرف الا الواقع الذاتى للعقـل فحسـب ، فى حين يفرق الأخير — الأنا — بين الأشـياء التى توجد فى العقـل والأشياء التى توجد فى العـالم الخارجى • وعلى الرغم من ذلك يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أن « الأنا » هو ذلك الجزء المنظم من « الهو » ، وأنه يخرج الى الوجود ليحقق أهداف « الهو » ولا يحبطها ، وأن كل قوته مستمدة من « الهو » • و « الأنا » ليس له وجود منفصل عن « الهو » ، كما أنه لا يحقق على الاطلاق الاستقلال التام عن « الهو » • ان دوره الأساسى هو التوسط بين المطالب الغريزية للكائن الحى وظروف البيئة المحيطة به • ان أهدافه الأساسية هى المحافظة على حياة الفرد ، والعمل على تكاثر النوع •

« الأنا الأعلى » : هو الممثل الداخلى للقيم التقليدية للمجتمع ومثله كما يفسرها للطفل والداه ، كما تفرض عليه من خلال نظام الثواب والعقاب • ان « الأنا الأعلى » هو الدرع الأخلاقى للشخصية ، وهو يتعلق بكل ما هو مثالى وليس ما هو واقعى • وهو ينزع الى الكمال

بدلا من اللذة ، حيث ان شاغله الأول هو أن يقرر ما اذا كان شيء ما صائبا أو خاطئا حتى يستطيع التصرف بناء على القيم الأخلاقية التى يفرضها المجتمع من خلال الذين يمثلونه •

ان الوظائف الأساسية « للأنا الأعلى » هى :

١ — كف دفعات « الهو » ، وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنسى أو العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هى التى يقابل التعبير عنها من المجتمع بأشد الادانة أو الرفض •

٢ — اقناع « الأنا » باحلال الأهداف الأخلاقية محل الأهداف الواقعية •

٣ — العمل على بلوغ الكمال •• أى أن « الأنا الأعلى » يميل الى معارضة « الهو » و « الأنا » معا ، والى تشكيل العالم على صورته • ولكنه يشبه « الهو » فى أنه غير منطقى ، ويشبه « الأنا » فى محاولته ممارسة التحكم فى الغرائز • ويختلف « الأنا الأعلى » عن « الأنا » فى أنه لا يحاول ارجاء الاشباع الغريزى فحسب ، بل انه يحاول أن يحول دونه على الدوام •

وفى ختام هذه المناقشة للنظم الثلاثة للشخصية ، ينبغى أن نوضح أن « الهو » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » هى مجرد أسماء لعلميات سيكولوجية مختلفة تعمل وفق نظم مختلفة فى مبادئها • وفى الظروف العادية لا تتعارض أو تصطدم هذه المبادىء بعضها بالبعض الآخر ، بل تعمل متآزرة كفريق تحت القيادية الادارية «للأنا » فالشخصية تعمل فى الظروف السوية بوصفها كلا متكاملا •• وبصورة عامة يمكننا النظر الى « الهو » بوصفه المكون البيولوجى — الحيوى — للشخصية ، و « الأنا » بوصفه المكون النفسى ، و « الأنا الأعلى » بوصفه المكون الاجتماعى[1] •

* * *

---

(١) فرج أحمد فرج ، قدرى محمود حفنى ، لطفى محمد فطيم (ترجمة) ، **نظريات الشخصية** • (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١) ، ص ٥٣ — ٥٧ •

خامسا ــ التوجيه والاختيار :

يستهدف التوجيه بصفة عامة مساعدة الشخص على تفهم حقيقة امكانياته بالطريقة التى تمكنه من بذل طاقاته واستغلال مواهبه فى الناحية التى تعود عليه ــ وبالتالى على المجتمع بالفائدة والمنفعة الكاملة . كما يقصـــد بالتوجيه معاونة الشخص على التوافق مع البيئة التى يعيش بهـــا ، والاعتماد على نفســـه فى الوصول الى قرارات حاسمة تتعلق بشئونه الخاصة لحل مشاكله .

ويختلف الأفراد من حيث قبولهم لمبدأ المســـاعدة .. فالبعض يعتمد على نفســـه كل الاعتماد فى حل مشاكله ، ولا يتطلب الأمر سوى امداده ببعض المعلومات التى تعينه على حل المشكلة ، بينما نجد البعض الآخر لا يثق بنفســـه فى حل مشاكله ولذا فهو يميل دائما الى أن يلقى العبء عن كاهله فيسلم زمامه الى شخص آخر ليدبر أموره . ويرجع هذا الاتجاه عادة الى مرحلة الطفولة بالنسبة للشخص ونوع التربية التى نشأ عليها فى تلك الفترة ، وما اذا كان قد نشأ منذ طفولته مستقل الرأى يتحمل المسئولية أم يعتمد على الغير ولا يتحمل المسئولية .

وليس المقصود بالتوجيه التسلط على تفكير الشخص ، أو املاء ارادتنا عليه ، أو ارغامه على قبول رأى معين ، أو التفكير نيابة عنه فيما يجب أن يفكر فيه هو بنفسه ، أو حمل العبء على كاهله .. بل المقصود بالتوجيه هو المساعدة والارشـــاد ، مساعدة الشخص على أن يصل بنفســـه الى قرارات حاسمة ليدبر شئونه ويكون وجهة نظره ، ويختار الحل المناسب لمشكلته وظروفه ــ دون الزام من الآخرين ــ ويسير فى الطريق السليم الذى يؤدى الى حل مشكلته .. فمن حق الشخص أن يلجأ الى الآخرين للمساعدة ، ولكنه فى النهاية يقع عليـــه وحده عبء اتخاذ القرار واختيار الطريق الذى يسلكه ، دون أن يشاركه أحد فى ذلك .

* * *

سادسا ــ الثواب والعقاب :

من واجب كل مسئول يعمـــل فى مجال التعليـــم أو التدريب سواء فى المدرسة أو المنزل أو الأعمال العامة أو الصناعة ، أن يقرر نوع

الوسائل التى تثير دافعيــة الأفراد وتحفزهم على النجاح •• وقد يعتمد هذا النجاح الى حد كبير على المهارة فى اســتخدام « الثواب والعقاب » لتشجيع عمليــة التعــلم وتوجيهها الوجهة الصحيحة •

وعند اختيار الأهــداف التعليمية للفرد ، قد يســهل اختيار تلك الأهداف الداخلية الأصيلة فى ارتباطهــا بالهدف أفضل من تلك ذات الارتباط الخارجى بالهدف • مثال ذلك : الطفل الذى يقوم بتجميع وتركيب جهاز لاسلكى صغير للاتصــال بصديقه يحصل على الاشباع والرضا المتلازم مع الواجب الذى يقوم بتنفيذه عندما يستكمل تركيب الجهــاز ويستخدمه • وتكون العلاقة بين الانجاز والهدف خارجية اذا كانت فرضية أو مصطنعة أو غير مباشرة • فمثلا نجد فى حالة الأب الذى يعد ابنه بشراء دراجة له اذا حصل على تقدير عال فى الامتحان النهائى ، أن الحصول على الدراجة هو حافز خارجى يرتبط بالحصول على التقدير العــالى فى الدرجات ، حيث لا توجد علاقة طبيعية أو أصيلة بين الحصول على التقدير والحصول على الدراجة • والحوافز التى تعود نتائجها مباشرة على الفرد هى التى تساعد على تحقيق الهدف ، أكثر من تلك التى لا ترتبط به مباشرة •

والحوافز دائما ايجابية وسلبية ، أى لابد أن يترادف « الثواب » مع « العقاب » للسيطرة على الموقف التعليمى • ونجد أن كل مجتمع يضع القوانين والتشريعات مع تحديد « عقوبات » توقع على كل مخالف القانون ، لضمان السيطرة والنظام •

وقد أثبتت التجارب السيكولوجية فى مجال الثواب والعقاب الى حقيقتين هامتين : الأول أن « العقاب » غالبا ما يكون أقل فعاليــة من « الثواب » ، حيث انه يقمع الاستجابة مؤقتا ولكنه لا يضعفهــا • والثانى أنه عندمــا يكون « العقاب » فعالا فانه يحقق هدفه من خلال ارغام الفرد على أن يختار استجابة بديلة قد تؤدى الى اثابتها فيما بعد •

وبالاضافة الى التأثير القسرى للعقاب ، فانه قد يسيطر على السلوك ويوجهه وجهة خاطئة للأسباب الآتية :

١ ــ لا يمكن التنبؤ بنتائج « العقاب » ، على الرغم من أنها قد تتضمن تعديل السلوك ، على عكس الحال فى موقف « الثواب » • بل ان الاستمرار فى العقاب قد يؤدى الى حدوث استجابة غير مرغوب فيها •

٢ — ان توقيع العقاب تحت ظروف معينة يؤدى الى تثبيت السلوك، وتدعيمه بدلا من تغييره أو تعديله أو ازالته ، نتيجة للخوف والقلق الناشىء عن العقاب .

٣ — ان نتائج العقاب غالبا ما تكون غير سارة . فغالبا ما يؤدى العقاب الى الشعور بالكراهية نحو الشخص المتسبب فيه — سواء أكان أبا أو معلما أو رئيسا — والى كراهية الموقف أو الظروف التى حدث فيها العقاب .

وعلى الرغم من هذه التحذيرات الخاصة بالعقاب ، فان هذا لا يعنى عدم فائدته فى التعليم والتربية . فقد يكون العقاب مفيدا لعدة أسباب :

١ — يؤدى العقاب الى التخلص من الاستجابة غير المرغوب فيها ، طالما كانت هناك استجابات أخرى أفضل لا تعرض الشخص للعقاب بل ويمكن الاثابة عنها .

٢ — يكون العقاب فعالا عندما تكون رغبتنا هى أن يستجيب الكائن الحى لاشارة أو موقف بحيث نتجنب العقاب .. فمثلا ، يتعلم الناس أن يلجأوا الى الداخل عند سماع صوت الرعد ، أو البحث عن الأماكن الظليلة عندما يكون الجو حارا . فتجنب التهديد بالعقاب يمكن أن يؤدى الى الثواب .

٣ — يؤدى العقاب الى الحصول على المعلومات .. فالطفل الذى يعبث بالتركيبات الكهربائية ويتلقى صدمة عابرة منها قد يتعلم مواطن الخطر فى التوصيلات الكهربائية ويتجنبها . فالعقاب الذى يؤدى للحصول على المعلومات قد يعيد تشكيل السلوك بحيث يمكن اثابة السلوك الجديد[1] ..

* * *

سابعا — الانسان المحقق لذاته والانسان المركب :

قدم « مازلو » نظرية فى الدافعية الانسانية تفترض أن الحاجات الأساسية للانسان تنتظم فى تدرج هرمى حسب قوة الحاجات وفاعليتها ،

---

(١) Ernest Hilgard, Richard Atkinson, Rita Atkinson; Introduction to Psychology, «6th. ed.». (New York : Harcourt Brace, Jovanovich, 1975), pp. 260 — 263.

وحدد الحاجات الأساسية للانسان فى الآتى : الحاجات البيولوجية ، الحاجة الى الأمن ، الحاجة الى الانتماء والحب ، الحاجة الى الاعتراف والتقدير ، الحاجة الى الجمال ، الحاجة الى تحقيق الذات • وعندما تشبع الحاجات ذات القوة الكبرى أو الأولوية ، فان الحاجات الأخرى فى التدرج الهرمى تبرز وتلح فى طلب الاشباع ، وعندما تشبع نكون قد صعدنا خطوة أخرى على سلم الدوافع ، حتى نصل الى القمة وهى « الحاجة الى تحقيق الذات » •

وفى هذا الاطار قدم « مازلو » نظرية « الانسان المحقق لذاته » Self- Actualizing Man التى تفترض ما يأتى :

١ — دوافع الانسان مرتبة فى شكل هرمى ، وأنه كلما أشبعت الحاجات الواقعة نحو قاعدة الهرم نشطت الحاجات الأخرى الأعلى منها فى التصنيف الهرمى •

٢ — يسعى الانسان الى أن يكون ناضجا ومنتجا فى العمل وأنه قادر على ذلك ، ويتطلب هذا قدرا معينا من الاستقلال والمرونة فى التكيف للمواقف المختلفة ، كما يستلزم تنمية قدرات الفرد ومهاراته الى الحد الأقصى •

٣ — الانسان تحركه دوافعه ويستجيب لحاجات وضوابط نفسية ذاتية ، وقد تهدده البواعث والضغوط الخارجية وتقلل من قدرته على التكيف الناضج السليم فى المواقف المختلفة •

٤ — لا يوجد تناقض بين تحقيق الانسان لذاته وبين أدائه لعمله بكفاءة ، بل ان الانسان اذا ما تهيأت له الفرص فانه سيقوم من جانبه بمحاولة التوفيق بين أهدافه وأهداف العمل[1] •

ويقوم مفهوم « الانسان المركب » Camplex Man. على الافتراضات الآتية :

١ — أن الانسان كائن معقد التركيب ، توجه سلوكه دوافع متعددة تعتمل معا فى نفسه • وعلى الرغم من أن حاجاته مصنفة فى تنظيم

---

(١) A. Maslow: Motivation and Personality, (New York : Harper, 1954), pp. 80 — 106.

هرمى حسب أهميتها فى نظره ، الا أن هذا التنظيم معرض للتغير من وقت لآخر ومن موقف لآخر حسب ما يدركه الشخص فى الموقف من مثيرات وعلاقات .

٢ — أن الانســـان قادر على تعلم دوافع جديدة من خلال خبرته فى مجال عمله ، لهذا يقوم نمط سلوكه على نتيجة التفاعل بين حاجات الانســـان وخبرته ومدى اشباع العمـــل لحاجاته ورغباته .

٣ — يمكن للانسان أن يعمل بطريقة مثمرة ومنتجة على أســـاس تعدد دوافعه وحاجاته ، ويتوقف الاشباع الذى يحصل عليـــه من العمل على طبيعة العمل المطلوب انجازه وطبيعة دوافع الشخص نفسه وقدراته وخبراته وطبيعة من يعملون معه ، وتتفاعل هذه كلها لتخلق نمطا معينا للعمل والعلاقات بين العاملين .

٤ — قد تختلف دوافع الانسان فى المنشآت المختلفة أو حتى فى الأقســـام المختلفة فى نفس المنشأة . فالفرد الذى لا يجد الاشباع فى التنظيم الرسمى قد يجد اشباعا لحاجاته الاجتماعية وحاجاته لتحقيق الذات فى التنظيمات غير الرسمية .

٥ — يمكن للانســـان أن يستجيب لأنماط مختلفة ومتعددة من استراتيجيات الادارة ، وعلى ذلك فليس هناك استراتيجية ادارية واحدة يمكن تطبيقها مع كل الناس فى كل موقف[1] .

* * *

ثامنا — الفروق الفردية :

للأفراد فى أى مجموعة من الكائنات الحية نواحى تشابههم ونواحى اختلافهم ، وليس هناك فردان يتشابهان تمام الشبه فى جميع النواحى ، وهذا مبدأ أساسى من المبادىء البيولوجية .

ويرجع سبب هذا التباين الى عاملى الوراثة والبيئة وتأثيرهما على الفرد ، اذ يفرض عامل الوراثة صفات بيولوجية معينة ، بينما يؤثر عامل البيئة على سلوك الفرد وصفاته الاجتماعية . وهناك بعض الخواص

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج.** (القاهرة : العالمية للنشر ، ١٩٧٨) ، ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

الجسمية الفردية التى لا تتأثر بعامل البيئة .. فبصمات الأصابع لا تتغير ، ولا تتشابه فى فردين ، كما أن فصيلة الدم تستمر على حالها منذ ولادة الفرد ولا تتغير بمرور الزمن ، وينطبق نفس القول على نوع الجنس بالنسبة للفرد سواء أكان ذكرا أم أنثى ، الا فى الحالات النادرة التى يحدث فيها التحول الجنسى .

ومن ناحية البيئة فيمكن القول بأنه قلما نجد شخصين لهما نفس الظروف البيئية ونفس الخبرات ، وينطبق هذا القول على التوائم التى نشأت فى بيئة واحدة . فاننا نجد الأطفال فى الأسرة الواحدة مختلفين فى خبراتهم ، كما أن اتجاهات الآباء نحو الأبناء متباينة ، كما أن مركز الطفل فى أسرته وترتيبه بالنسبة لاخوته يؤثر على اتجاهات من حوله بالنسبة له . ونجد فى الثقافة الواحدة أن الأسر ذات المركز العالى أو المكانة الاجتماعية تتميز بطابع خاص تفرقها عن الأسر الأخرى الأدنى مرتبة ، هذا علاوة على تأثير العقيدة الدينية على الأسرة وتمييزها عن الأسر الأخرى التى تعتنق مذهبا أو عقيدة دينية مختلفة . وعلاوة على ذلك فان الأسرة تتأثر بالنظم التربوية والاجتماعية بالنسبة للخبرات التى تمر بها ، وينشأ عن ذلك وجود فروق بين الأفراد فى المجتمع الواحد بل وفى الأسرة الواحدة(١) .

* * *

الخلاصـــة

طالعتنا الآيات الكريمة التى عرضناها فى هذا الفصـــل وتفسيرها بما يوضح طبيعة النفس البشرية التى أبدع الخالق — سبحانه — فى خلقها وتكوينها ، وتزويدها بما تحتاج اليه من استعدادات الخير والشر ، والهدى والضـــلال ..

لقد نادت تلك الآيات الكريمة فى الانسان أكرم ما فيـــه ، وهو « انسانيته » التى تميزه عن سائر الأحياء ، وترفعه الى أكرم مكان ، وتشير الى خلقه وتسويته وتعديله . فجاء الانسان مخلوقا جميـــلا

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **سيكولوجية المهن** — الطبعة الرابعـــة — (القاهرة : العالمية للنشر ، ١٩٧٧) ، ص ٢٨ — ٢٩ .

التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم • وتبدو نواحى الجمال والسواء والاعتدال فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه الروحى سواء •

فجملة القوى من النفس والعقل والروح هى « الذات الانسانية » ، تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » فى حالـــة من حالاتهـــا • ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فانما هى انسان واحد فى جميع هذه الحالات ، وهى تعبيرات عنها فى جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرهـــا •• وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما نسب اليهما من وعى باطن ووعى ظاهر « اللاشعور والشعور » ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية « التفكير والادراك والتذكر والتخيل » ، الى غير هذه الأسماء التى تتعدد للتمييز بين الأعمـــال ، وان لم تتعدد فى مصدرها المعلوم أو المجهول ••

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة ••

فقوة الدوافع الفطرية « الغريزية » تقابل النفس « الأمارة بالسوء » :

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء » •

(يوسف : ٥٣)

وقوة النفس الواعية تقابل النفس « الملهمة » :

« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها » (الشمس : ٧ — ١٠) •

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

« لا أقسم بيوم القيامة • ولا أقسم بالنفس اللوامة » •

(القيامة : ١ ، ٢)

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعـــلم بمواقع الأعذار :

« بل الانسان على نفسه بصيرة • ولو ألقى معاذيره » •

(القيامة : ١٤ ، ١٥)

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس « المطمئنة » :

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية » .
(الفجر : ٢٧ ، ٢٨)

وفى كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى .. فتجمعها خاصة واحدة هى خاصة الانسان فى القرآن ، وهى خاصة « الكائن المكلف المسئول » :

« كل نفس بما كسبت رهينة » (المدثر : ٣٨) .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا » .
(الأنبياء : ٤٧)

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » (آل عمران : ٣٠) .

« اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت . واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت . يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك » (الانفطار : ١ — ٨) .

« واذا النفوس زوجت » (التكوير : ٧) .

وجملة ما قيل فى معنى **« النفوس زوجت »** أنها تقترن بمقوماتها وأعمالها أو تضم الى أشباهها وقرنائها .. فحساب النفس من حساب الانسان ، ولكن الذات الانسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة . فان الانسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذى لا يعلم الانسان منه الا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح .

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى فى الذات الانسانية ، وعمل كل منها فى القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول .. فالانسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم

وعلمه عند الله • وصور العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق الا بايمان والهام[١] ••

ويمكن القول بأنه مع الايمان بوجود الخالق ، فانه قد شاءت ارادته — سبحانه — أن يخلق من العناصر الأصلية للأرض شيئا تكون له حياة ، ويبلغ فى النهاية الى تطور فى المخ يسمح بايداعه الذكاء • ويمكن القول بأن الله تعـالى قد شاء أن يمنح هذا الذكاء سيادة وسيطرة على جميع الكائنات الحية الأخرى ، وعلى كائنات أخرى كثيرة عاطلة عن الحياة •• وأيا ما تختر لنفسـك من هذه الآراء ، فان من الواضح أن الانسان لم يوجد كانسـان منذ بدأت الحياة ، ولكنه تطور فيما بعد الى ما هو عليـه الآن • وعلى أى حال لم يظهر كانسان ، الا بعد أن عجزت كل أشكال الحياة للكائنات الأخرى عن ايجاد جهاز بالغ التعقيد كالعقل البشرى[٢] •

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ••

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور ••

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ••

العقل روية وتدبير ••

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ••

والعقل ذكرى تأخذ من المـاضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لمـا يكون ، وتحفظ وتعى وتبدىء وتعيد ••

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور ••

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على

---

(١) عباس محمود العقاد ، **الانسان فى القرآن** • (بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٦٩) ، ص ٣٨ — ٤٠

(٢) محمود صالح الفلكى (ترجمة) ، **العلم يدعوا للايمـان** • الطبعة الخامسة . (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥) ، ص ١٠٧ — ١٠٨ •

المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء [١] ..

ويقول علماء الطب وأساتذة علم الأحياء عن جسم الانسان : أنه يقوم بأعمال تثبت أنه خلق بحكمة ولحكمة ، وانه وجد بتقدير وتنفى عنه شبهة المصادفة فى خلقه . ودليلهم على ذلك التحور الذى تقوم به الأجهزة لملافاة نقص وجد ، أو لتكملة ضعف طرأ على أحدها .. فقد دلت التجارب على أنه اذا استئصلت كلية من الجسم مثلا ترتب على ذلك تضخم الكلية الأخرى ، لامكان قيامها بعمل الكليتين ، دون أن يكون للانسان دخل فى ذلك .. واذا أصاب القلب مرض فى صمامه قلل من قدرته ، عمل على أن يزيد سمك جدرانه شيئا فشيئا ، لتقوى عضلاته ، على دفع الأذى .. ودلت التجارب على أن بالجسم أجزاء احتياطية ، يمكن الاستغناء عن جزء منها عند اصابتها بمرض . فقد يقطع من أمعاء الانسان متر من الأمتار السبعة والنصف الموجودة بجسمه دون أن يحس بفقده .. كذلك أمكن بتر أجزاء متعددة من مختلف أجهزة الجسم دون أن يؤثر على حياة الانسان .. فهل يتم ذلك عفوا وهل وجد كل ذلك مصادفة ؟ .. انها قدرة كائنة فى الانسان لا يد فيها له[٢] .

اذا كان العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها ، فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى . وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . ولكن العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى كممارسة الطب والعلاج النفسى دون أن يكون هناك ارادة ، ولابد لمن يتصف بالارادة أن يكون موجودا ذاتيا . وعلى ذلك فان النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا

---

(١) عباس محمود العقاد ، **الانسان فى القرآن** . ص ٢٤ .

(٢) عبد الرزاق نوفل ، **الله والعلم الحديث** . (القاهرة : مكتبة صايغ ، بدون تاريخ) ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولابد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان[١] •

ولو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذى ينظرون به الى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم ، فانهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله ، وهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقائق • فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك الى ادراك وجود السبب الأول الذى هو الله :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر : ٢٨) •

* * *

---

(١) الدمرداش عبد المجيد سرحان (ترجمة) ، **الله يتجلى فى عصر العلم** ، ط ٢ ـ (القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦١) ، ص ٢٧ •

الفصل الرابع

السلوك الانساني

يميز علماء النفس بين نوعين من السلوك :

١ ـ **السلوك العقلى أو الراقى** : ويقصد به مجموعة الأفعال التى يأتيها الفرد وتكون ذات علاقة بالحياة النفسية أو العقليـــة ، وأهم صفاته العمــل على تحقيق غرض معين •

٢ ـ **السلوك الآلى أو الانعكاسى** : ويقصد به ردود الفعــل التى تصدر من الانسان بطريقة آلية ثابتة ، مثل انقباض حركة العين وضيق فتحتها بازدياد الضوء الواقع عليها ، والأفعــال العشوائية التى نلاحظها فى صغار الأطفال كتحريك اليدين والرجلين حركات مستمرة دون نظام أو توافق[١] •

وينظر « الغزالى » الى السلوك من حيث كونه موجها لغاية دينية انسانية • وهو بهذا يساير روح الاسلام التى تنظر الى الانسان كشخصية متكاملة ، يجمع نشاطها بين العبادة الدينية الخالصة والعمل الدنيوى ، حين يكون هذا العمــل قائما على أساس معقول من المصلحة الفردية أو العامة والسمو الانسانى •

ونستطيع أن نلخص فكرة « الغزالى » عن السلوك فيما يأتى[٢] :

١ ـ للســلوك دوافع وبواعث وغايات وأهداف •

٢ ـ الدوافع داخلية تنبع من ذات الانســان ، ولكنها تستثار

---

(١) عبد العزيز القوصى ، **أسس الصحة النفسية** ـ ط ٩ • (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٩) ، ص ٥٩ ـ ٦٠ •

(٢) عبد الكريم العثمان ، **الدراسات النفسية عند المسلمين** • ص ١٧٢ ـ ١٧٤ •

بمثيرات خارجية ، أو بمثيرات داخلية تتعلق بالحاجات الجسدية والميول الطبيعية ، مثل الجوع والمحبة والخوف من الله .

٣ — يجد الانسان نفســه تجــاه هذه الدوافع مدفوعا للقيام بسلوك ما .

٤ — يتضمن هذا السلوك شعورا بالحاجة ، مع انفعال معين ، وادراك عقلى للموقف ، ويصحب هذا كله نشاط من نوع خاص لا ينفصل عن الشعور والانفعال وادراك الموقف .

٥ — الحياة النفســية عمل دينامى يحسب فيها حســاب التفاعل المستمر بين الأهداف أو الدوافع وبين السلوك .

٦ — ان الســلوك فردى يختلف باختــلاف العوامل الوراثيــة والاكتسابية . فنشاط النفس أو صفاتها ليست منفصلة عنها ، وهيئاتها لا تتماثل ، ولو تماثلت لاشتبه علينا زيد بعمرو .

٧ — يبدو أن السلوك الانســانى عند الغزالى على مستويين : مستوى يقترب فيه من باقى الكائنات الحية ، ومستوى آخر يحقق فيه مثله العليــا ويقترب فيه من المعانى الربانية والسلوك الملائكى . ويتميز المستوى الأول بتحكم الدوافع والعوامل الاندفاعية ، بينما يتميز السلوك الثانى بتحكم الارادة وسيطرة العقل .

ويمكن القول بأن « الغزالى » استفاد من الأسس النظرية التى وضعها الأقدمون للنشاط النفسى ، الا أنه قد أدخل على هذه الأسس كثيرا من التعديلات الهامة التى تهيأت له بفضل ثقافته الخاصة ، ودراسته للســلوك الانســانى ، ودقته فى تحليــل النفس البشرية بدوافعهــا وانفعالاتها واتصالها بالبيئة .

السلوك الانسانى فى القرآن والسنة :

القرآن الكريم يحث على حسن السلوك ، والخلق الحسن ، وفعل الخير . وفى الحــديث النبوى الشريف : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. وسنعرض فيما يلى الآيات والأحاديث التى تبرز الأخلاق الفاضلة[١] :

---

(١) عز الدين بليق . **منهاج الصالحين** . الباب الثالث .

١ ــ الوسطية والاعتدال :

* **« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »** (البقرة : ١٤٣) ٠

* **« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »** (الاسراء : ٢٩) ٠

* **« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قــواما »** (الفرقان : ٦٧) ٠

* **« يا بنى آدم خذوا زينتــكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »** (الأعراف : ٣١) ٠

* **« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »** ٠ (الاسراء : ١١٠)

ومن الحديث الشريف فى هذا المجال :

ــ « خير الأمور أوساطها » (البيهقى) ٠

ــ « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » (الترمذى والبيهقى) ٠

ــ « الهوا والعبوا فانى أكره أن يكون فى دينكم غلظة » ٠ (البيهقى)

ــ « روحوا قلوبكم ساعة فساعة » (أبو داوود) ٠

ــ « ان الله يحب أن تقبل رخصه كما يحب العبد مغفرة ربه » ٠ (الطبرانى)

* * *

٢ ــ حسن الخلق :

* **« وانك لعلى خلق عظيم »** (القــلم : ٤) ٠

* **« ٠٠ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين »** (آل عمران : ١٥٩) ٠

* **« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »** (فصلت : ٣٤) .

* **« الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »** (آل عمران : ١٣٤) .

ومن الحديث الشريف فى هذا المجال :

— عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » (رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح) .

— عن أبى ذر جندب بن جنادة ، وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .
(رواه الترمذى وقال : حديث حسن)

— « عن أبى الدرداء رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وان الله يبغض الفاحش البذىء — الذى يتكلم بالفحش — » .
(رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح)

— عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان من أحبكم الى ، وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا . وان أبغضكم الى ، وأبعدكم منى يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون » . قالوا : يا رسول الله .. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيقهون ؟ قال : « المتكبرون » .
(رواه الترمذى وقال : حديث حسن)

— وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » (رواه أبو داود) .

— « انكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » (أبو يعلى والبيهقى) .

— « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته » (أبو داوود) .

* * *

٣ — التواضع :

* **« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »** (الفرقان : ٦٣) .

* **« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »** (الشعراء : ٢١٥) .

* **« .. أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .. »** .
(المائدة : ٥٤)

* **« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم .. »** (الفتح : ٢٩) .

ومن الحديث الشريف :

— عن عياض بن حمار رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى أوحى الى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد » (رواه مسلم) .

قال أهل اللغة : البغى : التعدى والاستطالة .

— وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعضو الا عزا ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله » (رواه مسلم) .

— « من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله ، ومن ارتفع عليه وضعه الله » (الطبرانى) .

* * *

٤ — الصدق :

* **« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ..**
(التوبة : ١١٩)

* **« .. فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم »** (محمد : ٢١) .

* « .. **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** » (الأحزاب : ٢٤) .

* « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المـال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** » (البقرة : ١٧٧) .

ومن الحديث النبوى الشريف :

— عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وأن الكذب يهدى الى الفجـور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (متفق عليه) .

— عن أبى محمد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » (رواه الترمذى) .

— عن أبى خالد حكيم بن حزام ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فان صدقا وبينا بورك لهما ، وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » (متفق عليه) .

* * *

٥ — الأمانة :

* « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا** » ..
(الأحزاب : ٧٢)

* « **ان الله يامركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها** » ..
(النساء : ٥٨)

* « **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** » (المؤمنون : ٨) ٠

* « ٠٠ **فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه** ٠٠ » (البقرة : ٢٨٣) ٠

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » ٠
(رواه أحمد وأبو داوود)

— « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ٠٠
(رواه أحمد)

— « المستشار مؤتمن » (رواه الطبرانى) ٠

— « من سمع من رجل حديثا لا يشتهى أن يذكر عنه فهو أمانة وان لم يستكتمه » (رواه أحمد) ٠

* * *

٦ — الشـــكر :

* « **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فانما يشكر لنفســه ، ومن كفر فان الله غنى حميد** » (لقمان : ١٢) ٠

* « **ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير** » (لقمان : ١٤)

* « **وهو الذى أنشأ لكم الســمع والأبصار والأفئدة ، قليــلا ما تشكرون** » (المؤمنون : ٧٨) ٠

* « **انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا** » (الانسان : ٣) ٠

* « **واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشـــديد** » (ابراهيم : ٧) ٠

* « **فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** » ٠
(البقرة : ١٥٢)

ومن الحديث الشريف :

— « الطاعم الشاكر كالصائم الصابر » (رواه الترمذى) .

— « أشكركم لله أشكركم للناس » (رواه الطبرانى وأحمد) .

— « ان الله تعالى جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ويبغض البؤس والتباؤس » (رواه البيهقى) .

— « من أوتى معروفا فليذكره ، فمن ذكره فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » (رواه الطبرانى) .

* * *

٧ — الحلم والأناة والرفق :

* **« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ..**
(الأعراف : ١٩٩)

* **« .. وان الساعة لآتية ، فاصفح الصفح الجميل » ..**
(الحجر : ٨٥)

* **« .. وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »** (النور : ٢٢) .

* **« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاهـا الا الذين صبروا وما يلقاهـا الا ذو حظ عظيم »** (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) .

* **« .. والـكاظمين الغيظ والعـافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »** (آل عمران : ١٣٤) .

ومن الحديث الشريف :

— عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » (متفق عليه) .

— وعنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله رفيق يحب

الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه » (رواه مسلم) .

ـ وعنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه » (رواه مسلم) .

ـ وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يسروا ولا تعسروا . وبشروا ولا تنفروا » (متفق عليه) .

ـ وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » . (رواه مسلم)

* * *

٨ ـ المحبة :

* **« ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »** (الصف : ٤) .

* **« .. والله يحب الصابرين »** (آل عمران : ١٤٦) .

* **« .. ان الله يحب المحسنين »** (المائدة : ١٣) .

* **« .. ان الله يحب المقسطين »** (المائدة : ٤٢) .

* **« .. ان الله يحب المتوكلين »** (آل عمران : ١٥٩) .

* **« .. والله يحب المطهرين »** (التوبة : ١٠٨) .

ومن الحديث الشريف :

ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » (متفق عليه) .

— وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » • (رواه مسلم)

— وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى » (رواه مسلم) •

* * *

٩ — الجود والكرم :

*** « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقــون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد »** (البقرة : ٢٦٧) •

*** « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون »** (البقرة : ٢٧٢) •

*** « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقــوا من شىء فان الله به عليم »** (آل عمران : ٩٢) •

ومن الحديث النبوى الشريف :

— عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : أنفق يا ابن آدم ينفق عليك » (متفق عليه) •

— وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (متفق عليه) •

— « الجود من جود الله تعالى • فجودوا يجد الله عليكم • ألا ان السـخاء شجرة فى الجنة ، أغصانها مدلاة فى الأرض فمن تعلق بغصن منها أدخله الله الجنة • ألا وان السخاء من الايمان ، والايمان فى الجنة » • (رواه الطبرانى)

— « تجاوزوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده اذا عثر . السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، ولجاهل سخى أحب الى الله من عالم — أو عابد — بخيل » (الطبرانى) .

* * *

١٠ — حفظ اللســان :

* « **واجعل لى لســان صدق فى الآخرين** » (الشعراء : ٨٤) .

* « **ومن آياته خلق الســموات والأرض واختــلاف ألســنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين** » (الروم : ٢٢) .

* « **ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين** » . (البلد : ٨ — ١٠)

* « **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنــا وأهلونــا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ..** » (الفتح : ١١) .

* « **ويجعلــون لله ما يكرهون وتصف ألســنتهم الكذب أن لهم الحسنى ، لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون** » (النحل : ٦٢) .

* « **يــوم تشــهد عليهم ألســنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** » (النور : ٢٤) .

ومن الحديث الشريف :

— عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » . (متفق عليه)

— وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله .. أى المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » .. (متفق عليه)

— وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله .. ما النجاة ؟ قال : « أمســك عليك لســانك وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » (رواه الترمذى) .

— وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اذا أصبح ابن آدم ، فان الأعضاء كلها تكفر اللسان — تذل وتخضع له — ، وتقول : اتق الله فينا ، فانما نحن بك : فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا » (رواه الترمذى) •

— « رحم الله من سكت فسلم أو قال فغنم » (الربيع) •

— « الصمت حكمة وقليل فاعله » (ابن حبان) •

— « أكثر خطايا ابن آدم من لسانه » (الطبرانى والبيهقى) •

بعد أن استشهد الكاتب بالآيات والأحاديث التى تحث على السلوك السوى متمثلا فى الخلق الحسن ، والصدق ، والأمانة ، والتواضع ، والشكر والعرفان ، والحلم والأناة ، والرفق ، والمحبة ، والجود والكرم ، وحفظ اللسان •• يبدو من المفيد أن نناقش وجهات نظر علماء النفس فيما يختص بديناميكية السلوك ، والشخصية السوية ••

* * *

ديناميكية السلوك :

من الدراسات السلوكية الحديثة تتضح حقيقة هامة تلقى الضوء على دراسة السلوك الانسانى وتفسيره[1] •

فالانسان يمثل نظاما متكاملا ، تتكون منه أجهزة متعددة يختص كل منها بأداء وظيفة محددة • ولذلك فان السبيل العلمى لفهم السلوك وتفسيره هو عن طريق النظر الى جوانبه المختلفة فى آن واحد • ولقد اتضح من الدراسات السلوكية أن الانسان له دوافع متعددة ومعقدة ، وعلى الرغم من وجود صفات متماثلة فى بعض الأفراد الا أن هناك جانبا أساسيا من الاختلافات الفردية بينهم ، وعلى هذا فاننا لا نتوقع أن يتصرف كل الناس بطريقة واحدة استجابة لنفس المؤثر أو المثير • وعلى ذلك فان الأساس الأول لفهم السلوك الانسانى هو تحليل ذلك السلوك

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **علم النفس والكفاية الانتاجية** • (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١) ، ص ٦٧٩ — ٦٨٠ •

لمعرفة الدافع أو الباعث عليه • ومن ناحية أخرى فالانسان لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن غيره من الأفراد ، لذلك كان من الضرورى أن نضع الاعتبارات الاجتماعية فى الاعتبار عند تحليل سلوك الفرد •

ونتيجة للبحوث فى مجال ديناميكية السلوك نفترض ما يأتى :

١ — السلوك الانسانى سلوك هادف ، فلكل سلوك هدف يسعى الفرد الى تحقيقه ، ويحدد هذا الهدف حاجات الفرد البيولوجية والاجتماعية والنفسية •

٢ — السلوك الانسانى سلوك مسبب ، وقد يكون السبب ظاهرا واضحا أو مختفيا غير ظاهر •

٣ — السلوك الانسانى متعدد الأسباب ، فالحاجات الأساسية للانسان تتفاعل باستمرار داخل الفرد الذى يحاول أن يشبع سلوكه أكبر عدد ممكن من حاجاته فى آن واحد •

٤ — كثيرا ما يلعب اللاشعور دورا هاما فى تحديد السلوك الانسانى ، وعموما فان الفرد لا يستطيع لأول وهلة تحديد الأسباب المتعددة لسلوكه •

٥ — السلوك الانسانى عملية مستمرة ، فليست هناك فواصل قاطعة تحدد بدء كل سلوك ونهايته • فكل سلوك جزء أو حلقة من سلسلة متكاملة مستمرة تندمج حلقاتها باستمرار •

٦ — يشمل السلوك الانسانى الفرد ككل •• فهناك دائما عمليات متعددة تجرى داخل الفرد نتيجة للمؤثرات المتعددة التى تواجهه ، ومن شأن أى نشاط لأى جزء أن يؤثر على الأجزاء الأخرى •

٧ — الانسان عضو فى مجتمع كبير •• فهو يتأثر بطبيعة الثقافة والحضارة التى يعيش فيها ، ويصبح لتلك القوى الاجتماعية تأثير شديد على أساليب وأنماط السلوك التى يتبعها •

٨ — لكل فرد « شخصية » متميزة تختلف عنها فى غيره من الأشخاص ، وتلك الشخصية هى نتاج التفاعل بين حاجات الفرد ورغباته وخبراته والبيئة التى يعيش فيها • فقد يكون الفرد قلقا غير مستقر

أو قد يكون طابع شخصيته التسلط أو العدوانية ، أو قد يصبح انطوائيا أو سلبيا • ويحدد ذلك النوع من الشخصية بعض أنماط السلوك الانسانى ويساعد على تفسير تصرفات الفرد •

* * *

المميزات السلوكية للشخصية السوية :

تتميز الشخصية السوية بالمميزات السلوكية الآتية[1] :

١ ــ القدرة على التحكم فى الذات :

من الواضح أنه كلما نمت عند الفرد القدرة على التفكير الرمزى الموضوعى ــ التى على أساسها يستطيع أن يتنبأ بنتائج الأحداث قبل وقوعها ــ ازدادت بالتالى قدرته على الضبط والتحكم فى سلوكه عن طريق توقع النتائج التى يمكن أن تترتب عليه فى المدى البعيد •

٢ ــ تحمل المسئولية وتقديرها :

يستمد الشخص السوى قدرته على الضبط والتحكم فى سلوكه من تقديره الشخصى للأمور تقديرا مبنيا على موازنة النتائج وتمحيصها • وكلما زادت القدرة على الضبط الذاتى كلما قلت الحاجة الى الضبط الصادر من سلطة أخرى خارجية • والشخص السوى هو الذى يعتبر نفســه مسئولا عن أعماله ، ويتحمل هذه المسئولية عن طيب خاطر •

٣ ــ التعــاون :

ان اعتماد الناس بعضهم على البعض الآخر ــ وخاصة فى المجتمع المعاصر ــ هو جزء أساسى من حياتهم الاجتماعية • وعلى هذا الأساس يصبح الشخص الســوى هو الذى يستطيع أن يحقق هــذه الطبيعة الاجتماعية ، وهو الذى يعتمد عليه الآخرون ، كما أنه يقر فى الوقت نفسه بحاجته الى الآخرين •

---

(١) محمد عماد الدين اسماعيل ، **الشــخصية والعــلاج النفسى** • ص ١٣٢ ــ ١٤٩ •

٤ ــ الثقة المتبادلة :

ان اعتراف الشخص بحاجته الى الآخرين يتضمن أيضا القدرة على علاقات شخصية وثيقة بهم ، أى علاقات مبنية على الثقة المتبادلة • وهذه الصفة الهامة للشخصية السوية هى التى يمكن أن نعبر عنها بالقدرة على المحبة والود • فالشخص السوى هو الذى يستطيع أن يقيم علاقات مع الآخرين أساسها المحبة والود والتفاهم والاحترام والثقة المتبادلة •

٥ ــ الانسانية :

الشخص السوى هو الذى يستطيع أن يبذل وأن يمنح كما يستطيع أن يأخذ ، سواء أكان ذلك مع أسرته أو أصدقائه أو زملائه ، وسواء أكان ذلك فى جماعات ينتمى اليها أم مع جماعات أخرى ، مع جماعات يتفق معها فى الرأى والعقيدة أو مع جماعات يختلف معها فى الاتجاهات والأفكار • فالانسان ــ مهما كانت حاله ــ مدين للانسانية بوجوده وقدرته على الكلام والحركة والتمتع بثمرات العقول والأفكار التى سبقته وأثرت على نوع الثقافة التى يعيش فيها • ان الانسان مدين بكل هذا الى الانسانية جمعاء ، التى لولاها ما كانت حضارته بجميع مظاهرها • ومن شأن هذا كله أن يجعل على الانسان واجبا لابد أن يؤديه للمجتمع الانسانى الكبير الى جانب مجتمعه المحلى المحدود • ولهذا كان من الطبيعى أن نتصور الشخصية السوية المتكاملة بأنها تلك التى تسهم فى خدمة الانسانية جمعاء ، وأن تفعل ذلك فى حدود امكانياتها • وما أصدق من قال : « ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط » •

٦ ــ الديمقراطية :

ان الشخص السوى هو الذى يعمل للانسانية جمعاء ، كذلك فان الشخص السوى هو الديمقراطى • ففكرة الديمقراطية ــ كفكرة الانسانية ــ ترتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الشخصية السوية • فالديمقراطية ليست سوى العناية بالآخرين والاهتمام بهم ووضع قيمة الانسان فوق قيمة الأشياء ، والسعى الى ايجاد علاقات بناءة مثمرة مع أى قوم من الناس والعمل على تنمية التفاهم وتبادل الرأى والمشورة

والمساعدات بينهم . وان البعد عن هذه الأهداف معناه — فى الواقع — الخوف من الناس والحد من امكانية تنمية الصداقات ، كما يعنى أيضا امكانية السيطرة على الآخرين ، وبذلك تتعرض القيم الانسانية للخطر فتنعدم الثقة والتعاون فيما بين الناس .

٧ — مستوى الطموح :

الشخص السوى هو الذى يضع نصب عينيه مثلا ومستويات يسعى للوصول اليها ، حتى ولو كانت فى بعض الأحيان بعيدة المنال . والتوافق المتكامل ليس معناه تحقيق الكمال ، بل معناه الجهاد والعمل المستمر طبقا لخير ما يمكن أن يتصوره الفرد من مبادىء . ولكى يتحقق هذا يجب أن تكون الأهداف واقعية وفى اطار امكانيات الفرد ، حتى لا يتعرض للشعور بالاحباط والفشل .

ان هذا النموذج الذى رسمناه للشخصية السوية لا يتضمن أى تصور بأن هذه الشخصية فى سعادة دائمة ، أو أنها الشخصية الخالية من الصراع ، أو الشخصية التى تعيش دون مشاكل .. فالشخص السوى قد يعجز أحيانا عن تحقيق أهدافه ، وقد يدفعه جهله بالعالم المعقد الذى يعيش فيه والضغوط التى يواجهها الى اتخاذ أسلوب غير ملائم من السلوك ، كما أنها لا تخلو تماما من الخوف أو القلق أو الصراع . فمفهوم الشخص السوى اذن لا يتضمن الخلو التام من الخوف أو القلق أو الصراع ، بل ان الذى يميز الشخص السوى عن غيره هو طريقة مواجهة المخاوف والصراع والقلق وليس الخلو منها .. فالشخص السوى هو الذى يتعلم كيف يواجه صراعه واخفاقه بالحكمة بدلا من الشعور بالخوف أو الانطواء أو العدوان ، وهو الشخص الذى يتمتع بدرجة عالية من احترام الذات ومن اجتذاب الآخرين نحوه وحصوله على حبهم له وتقديرهم اياه . وأخيرا فان التوافق المتكامل الذى يميز سلوك الشخص السوى لا يعنى أن يسلك طبقا لمواصفات جامدة يتعين عليه اتباعها دون تصرف ، بل ان كل ظرف يستلزم تصرفا مناسبا للزمان والمكان والموقف . ويعتبر الشخص سويا فى تصرفاته وفى سلوكه بالدرجة التى يحقق بها سلوكه الامكانيات التى يتميز بها الانسان عن غيره من الكائنات ، ألا وهى الامكانيات الرمزية والامكانيات الاجتماعية .

* * *

وهناك العديد من الآراء التى حددت معالم الشخصية السوية وخصائصها ، نلخصها فيما يلى :

١ — حاول « روجرز »(١) ، مؤسس مدرسة « الارشاد النفسى المتمركز حول العميل » ، أن يوضح الخصائص العامة للشخصية السوية ، والتى تتلخص فيما يأتى :

(أ) أن يكون الشخص متفتحا ومتقبلا لخبرته أيا كان نوعها ، بمعنى ألا ينكر الفرد أو يشوه أى ادراك حسى أو انطباعات من أجل تجنب خبرة مهددة لتكوين ذاته ، بل انه يسعى الى ادراك خبراته الداخلية مهما كانت غير سارة •

(ب) أن يعيش الانسان بقناعة ذاتية بأن كل لحظة من الخبرة تعنى شيئا جديدا •• وهذا يعنى أن لدى الشخص شعورا داخليا بأن يتحرك وينمو ، وبأنه لا توجد لديه تصورات مسبقة عما سيكون عليه أخيرا كشخص •

(ج) أن يجد الشخص فى تركيبه وسيلة موثوقا بها للوصول الى السلوك الأكثر اشباعا فى مواقف الحياة الواقعية ، وأنه يفعل ما يشعر بأنه الصواب من وجهة نظره ومن تكوين ذاته المعتمد على خبراته •

وهذه الخصائص والصفات تجريبية ، وليست صورا من قبيل التمنى • وقد وصل « روجرز » الى هذه الخصائص من واقع خبرته وتجاربه الاكلينيكية • فقد لاحظ أشخاصا غير سعداء فى حياتهم ، وعندما استخدم معهم وسائل الارشاد النفسى غير المباشر لاحظ التغير الذى طرأ على شخصياتهم عندما تصبح الظروف طيبة (٢) •

٢ — يرى « سوليفان »(٣) أن الدراسة المحببة للطب النفسى ليست

---

(١) C. Rogers; Client — Centered Therapy. (Boston : Houghton — Mifflin, 1951), Ch. 11.

(٢) حسن الفقى ، وسيد خير الله (ترجمة) ، **الشخصية بين الصحة والمرض** • (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٣) ، ف ١ .

(٣) H. Sullivan; The Interpersonal Theory of Psychiatry (New York : Norton, 1953), pp. 110-111.

دراسة الشخص كما هو ، بل من حيث علاقاته مع الآخرين • ويرى أن الشخص يعبر عن الشخصية السوية الى المدى الذى يصبح فيه واعيا بعلاقاته الشخصية المتبادلة • ويعنى ذلك أن الشخص يحقق الشخصية السوية اذا كانت معتقداته عن نفسه وعن الآخرين دقيقة • ومن خلال المعتقدات والمعلومات الدقيقة يستطيع الشخص أن يحصل على اشباع ورضا وأمن دائمين ، يراها « سوليفان » كفايات أو أهدافا رئيسية للسلوك • ويرمز « الاشباع » — فى رأى « سوليفان » الى اشـــباع الحاجات البيولوجية ، ويرمز « الأمن » الى الحصول على استجابات من الآخرين حاملة لمعانى المحبة والمكانة والتقدير منهم للشخص •

٣ — يرى « ايريك فروم »(١) أن الشخصية السوية تتحقق الى المدى الذى يظهر فيه الشخص اتجاها « منتجا » • والاتجاه المنتج هو طريقة الفرد لاشباع حاجاته بطريقة أفضل ، بمعنى أن الانتاجية عبارة عن انتاج الأشياء والظروف الضرورية للنمو والســـعادة • وصاحب الشخصية المنتجة قادر على استخدام مهاراته ومعلوماته بما يؤدى الى انتاج كل ما هو ضرورى لجعله سعيدا متمتعا بصحة نفسية سليمة •

٤ — أوضحت « كارين هورنى »(٢) أن علاقة الشـــخص بذاته الحقيقية هى أساس الشخصية السوية والصحة النفسية السليمة • والشخص المنفصل عن ذاته غير سوى • والشخص الذى يعرف ذاته ، ويحس بمشاعره وارادته ، ويقر بمسئوليته تجاه تصرفاته ، يعبر عن شخصية سوية •

٥ — اعتبر « آدلر »(٣) أن « الشعور الاجتماعى » مؤشر للشخصية السوية • ويرمز الشعور الاجتماعى الى الشعور بالتوحد مع البشر • وصاحب الشخصية غير السوية — بالنسبة « لآدلر » — هو الذى يكرس كل طاقاته للحصول على القوة ليخلص نفسه من مشاعر النقص ، ويدفع

---

(١) F. Fromm; Man for Himself. (New York, : Holt, 1947). pp. 82 – 106.

(٢) K. Horney; Heuros's and Human Growth. (New-York : Norton, 1950), ch. 1

(٣) A. Adler; Understanding Human Natnre, (New-York : Greenberg, 1929), pp. 30 — 32.

هذا التعويض الشخص الى التنافس مع الآخرين بدلا من سعيه للحصول على تعاونهم معه ومحبتهم اياه •

٦ — اعتبر «مازلو»(١) أن «الشخص المحقق لذاته» يتميز بشخصية سوية • ويرمز « تحقيق الذات » الى عملية تحقيق القوى الكامنة الفطرية فى الشخص • وفى رأيه أن الشخص لا يستطيع تحقيق ذاته حتى يكون لديه رصيد من اشباع حاجاته الأساسية • واذا ما أشبعت هذه الحاجات تماما فانه يستطيع أن يوجه طاقاته لمهمة « تحقيق الذات » — كالانتاج العلمى ، أو العمل الفنى ، أو العمل التنظيمى • وحدد « مازلو » مجموعة من الخصائص التى يتصف بها الشخص « المحقق لذاته » ، تتلخص فى الآتى : ادراك الواقع والتوافق معه ، وتقبل الذات والآخرين ، والتلقائية ، والاحساس برسالته فى الحياة ، والاستقلال الذاتى ، والشعور بالانتماء والتوحد مع بنى الانسان ، والعلاقات الشخصية العميقة المتبادلة ، والتمييز بين الوسائل والغايات ، والابداع والابتكار ، والحاجة الى الخلوة الذاتية من حين لآخر •

٧ — لفت « رانك »(٢) الأنظار الى « الخلق والابداع » كأساس للسلوك السوى • والشخص الذى يظهر روحا خلاقة هو الذى يتقبل ارادته وفرديته ويؤكدها ، كما أنه لا يخاف التجديد خشية الاختلاف مع الآخرين •

وفى ختام هذه المناقشة عن خصائص « الشخصية السوية » ، يبدو من المعقول أن نبرز النقاط الآتية :

أولا : يمكن تحليل السلوك الى نتائج مترتبة على اشباع الحاجات الأساسية • وما دامت الحاجات تشير الى تقدير ما هو فعال لتحقيق غايات متعددة لها قيمة ، فانه يمكن تحديد الحاجات الأساسية للانسان فى الآتى : الحاجات البيولوجية ، والحاجة الى الأمن ، والحاجة الى الانتماء ، والحاجة الى الاعتراف والتقدير ، والحاجة الى تحقيق الذات •

---

(١) A. Maslow; Op. Cit., ch. 12.

(٢) O. Rank; Will Therapy, and Truth, and Reality. (New York : Knopf, 1945), pp. 111 — 112.

ثانيـا : يعتبر الاتصال بالواقع من مؤشرات الشخصية السوية • ويتصل الشخص بالواقع عندما يكون ادراكه الحسى ومعتقداته صحيحين • واننا ننمى معتقداتنا عن العالم الذى نعيش فيه عن طريق الادراك الحسى ومن الحدس والذاكرة والخيال ، وهذه المصادر عرضة للخطأ ، كما أن المعتقدات المستمدة منها قد تكون غير صحيحة الا اذا تعرضت لاختبار واقعى • وهذا يعنى مقارنة هذه المعتقدات بالدليل الملموس ، ودراسة مدى اتفاقها مع معتقدات أخرى راسخة •

ثالثـا : يحتاج الفرد الى الآخرين لمعاونته فى حل المشاكل التى تواجهه •• فهو يحتاج الى الآخرين ليتصرفوا بطرق تشبع حاجاته التى لا يستطيع أن يشبعها وحده بسلوكه الخاص المستقل •• وهو يحتاج الى الآخرين ليسلكوا نحوه بطرق تدعم تقديره لذاته وتجعله يشعر بالأمن ، أى التحرر من أى خوف أو تهديد بالحرمان أو العدوان أو من الأخطار المترتبة على نبذه ورفضه وعدم تقبله من الآخرين • ويستخدم تعبير « السلوك الشخصى المتبادل » للدلالة على سلوك شخص فى علاقته بشخص آخر ، وهو سلوك صحى تلقائى متغير مرن ، ويعبر عن الذات الحقيقية للفرد •

رابعـا : للعلاقات الشخصية السوية المتبادلة مميزات أساسية هى :

١ — أن لدى كل طرف مفهوم دقيق واضح عن شخصية الطرف الآخر •

٢ — يميل كل طرف الى مميزات الطرف الآخر ويتقبلها •

٣ — يشعر كل طرف باهتمام نحو نمو الطرف الآخر وسعادته •

٤ — يتصل كل طرف اتصالا كاملا بالآخر •

٥ — يفرض كل طرف مطالب وتوقعات معقولة على الآخر •

٦ — يحترم كل طرف حق الآخر فى تقرير شئونه •

خامسا : تعتبر ذات الفرد محددا هاما لسلوكه • ويمدنا تكوين الذات بحدود معينة لسلوكنا الصريح ولخبرتنا الذاتية • وبصفة عامة يسعى الشخص الى التصرف بطرق تتفق مع بناء ذاته ، ويقيد أفكاره

ومشاعره ورغباته فى حدودها • ويتكون مفهوم الذات من كل المعتقدات التى يحملها الشخص عن نفسه ، مثل القرارات المتعلقة بأنماط استجاباته لمواقف الحياة المختلفة •

وفى هذا المجال يعتقد « سينج وكومز »(١) أن السلوك كله بلا استثناء يتحدد ويتعلق بالمجال الظاهرى للكائن القائم بالسلوك • ويتكون « المجال الظاهرى » من مجموع الخبرات التى يعانيها الشخص فى لحظة الفعل • ويتراوح الوعى بين مستوى منخفض ومرتفع ، ومن المفروض أن لا يصير « لاشعوريا » تماما أبدا • وهما يعتقدان أن على علم النفس أن يقبل الفكرة الشائعة أن الوعى سبب للسلوك ، وأن ما يعتقده المرء وما يستشعره يحدد ما سوف يفعله •

وقدم « روجرز »(٢) « نظرية الذات » ، وتتلخص التصورات الرئيسية المكونة لها فيما يلى :

١ — الكائن العضوى ، وهو الفرد بأكمله •

٢ — المجال الظاهرى ، وهو مجموع الخبرة •

٣ — الذات ، وهى الجزء المتمايز من المجال الظاهرى ، وتتكون من نمط للادراكات والقيم الشعورية بالنسبة لـ« أنا » و « ضمير المتكلم » •

ويمتلك الكائن العضوى الخصائص الآتية :

(أ) أنه يستجيب ككل منظم للمجال الظاهرى حتى يشبع حاجاته •

(ب) أن له دافعا أساسيا واحدا وهو أن يحقق ذاته ويصونها ويعززها •

(ج) أنه قد يرمز الى خبراته بحيث تصبح شعورية ، أو قد ينكر عليها الرمز بحيث تظل لاشعورية ، أو قد يتجاهلها كلية • وللمجال

---

(١) D. Snygg; and A. Combs; Individual Behavior : A New Frame of Reference for Psychology. (New York : Harper, 1949), p. 15.

(٢) C. Rogers; Op. cit., ch. 11

الظاهرى خاصية أن يكون شعوريا أو لاشعوريا ، وذلك بحسب ما اذا كانت الخبرات التى تكون المجال قد تحولت الى رموز أم لا .

أما « الذات » وهى النواة فى نظرية « روجرز » عن الشخصية ، فلها خصائص عديدة أهمها :

(أ) أنها تنمو فى تفاعل الكائن مع البيئة .

(ب) أنها قد تمتص قيم الآخرين وتدركها بطريقة مشوهة .

(ج) تنزع الذات الى الاتساق .

(د) يسلك الكائن بأساليب تتسق مع الذات .

(هـ) الخبرات التى لا تتسق مع الذات تدرك بوصفها تهديدات .

(و) قد تتغير الذات نتيجة للنضج والتعلم[١] .

وقد أبرز « روجرز » طبيعة هذه المفاهيم وعلاقاتها المتداخلة فى سلسلة من تسع عشرة قضية ، وفى ختام مناقشته لهذه القضايا يضع النتاج النهائى لوجهة نظره فى هذه العبارات[٢] :

« تعد هذه النظرية ظواهرية الطابع فى أساسها وترتكز فى المقام الأول على الذات كمفهوم تفسيرى . وهى تصور نقطة النهاية لارتقاء الشخصية بوصفها اتفاقا أساسيا بين المجال الظاهرى للخبرة والبناء التصورى للذات .. وذلك موقف اذا تحقق فانه يمثل تحررا من الاجهاد الداخلى والقلق ، ومن الاجهاد المحتمل . وهذا هو حد الكمال فى التوافق الموجه واقعيا ، ومعناه اقامة نظام فردى للقيم وعلى جانب كبير من الاتفاق مع نظام القيم لأى انسان آخر له نفس القدر من التوافق السوى » .

* * *

(١) فرج أحمد فرج وآخرن (ترجمة) **نظريات الشخصية** ، ص ٦١٢ ـ ٦١٣ .

(٢) C. Rogers; Op. cit., p. 532:

الخلاصـــة

يتلخص ما سبق مناقشته فى هذا الفصـــل فى الآتى :

١ — يبدو « الغزالى » باحثا فى عـــلم النفس ، وفى السلوك خاصة ، بصورة تجعله متقدما على الكثيرين ممن درسوا السلوك من علمـــاء النفس • وبالاضافة الى عناية الغزالى بالسلوك من حيث كونه موجها لغاية دينية انسانية ، فانه يتناول النشاط النفسى كظاهرة عامة مع مراعاة ما يدخل على السلوك من تعديلات بحسب الأهداف العـــامة أو الجزئية التى توجه السلوك الانســـانى • ويمكن القول بأن « الغزالى » اســـتفاد من الأسس النظرية التى وضعهـــا الأقدمون للنشاط النفسى ، الا أنه قد أدخل على الأسس تعديلات كثيرة هامة تهيأت له بفضل ثقافته الخاصة ، ودراسته للسلوك الانسانى ، ودقته فى تحليـــل النفس البشرية من حيث دوافعها وانفعالاتها واتصالها بالبيئة •• وعلى ذلك فان الغزالى قد سبق علماء النفس الغربيين وتفوق عليهم فى هذا المجال ، بالاضافة الى توجيه دراساته النفسية نحو غاية دينية انسانية •

٢ — لقد حث الدين الاســـلامى الحنيف على التمســـك بالأخلاق الفاضلة ، وحسن السلوك ، وفعل الخير • وقد استشهدنا فى هذا الفصل بالآيات والأحاديث التى تبرز الأخلاق الفاضلة مثل : الوسطية والاعتدال ، وحسن الخلق ، والتواضع ، والصدق ، والأمانة ، والشكر ، والحلم والأناة والرفق ، والمحبة ، والجود والكرم ، وحفظ اللسان •• وقد أعقب ذلك مناقشة وجهات نظر علماء النفس فيما يختص بديناميكية السلوك والشخصية السوية ، وقد اتضح من هذه المناقشة ما يأتى :

(أ) السلوك الانسانى سلوك هادف ، ومسبب ، ومتعدد الأسباب ، وأن اللاشـــعور كثيرا ما يلعب دورا هاما فى تحـــديد الســـلوك ، وأن السلوك الانسانى عملية مستمرة ، وأنه يشمل الفرد بأكمله ، وأن الانسان عضو فى مجتمع كبير ولذا يتأثر بالثقافة والحضارة التى يعيش فيها ، وأن لكل فرد شخصية متميزة تختلف عنها فى غيره من الأشخاص وهى نتاج التفاعل بين حاجات الفرد وامكانياته وخبراته وبيئته •

(ب) تتميز الشخصية السوية بالميزات السلوكية الآتية :
القدرة على التحكم فى الذات ، وتحمل المسئولية وتقديرها ، والتعاون ، والثقة المتبادلة ، والانسانية ، والديمقراطية ، ومستوى الطموح •

(ج) تعددت الآراء ووجهات النظر التى حددت معالم الشخصية السوية بحيث شملت ما يأتى :

— أن يكون الشخص متفتحا ومتقبلا لخبرة ، وأن يعيش بقناعة ذاتية بأن كل لحظة من الخبرة تعنى شيئا جديدا ، وأن يجد الشخص وسيلة للوصول الى السلوك الأكثر اشباعا فى مواقف الحياة الواقعية •

— أن الشخص يعبر عن الشخصية السوية اذا كانت معتقداته عن نفسه وعن الآخرين دقيقة ، وأن يكون واعيا بعلاقاته الشخصية المتبادلة مع الآخرين •

— أن الشخصية السوية تتحقق الى المدى الذى يظهر فيه الشخص اتجاها منتجا ، بمعنى انتاج الأشياء والظروف الضرورية لنمو الشخص وسعادته •

— أن علاقة الشخص بذاته الحقيقية هى أساس الشخصية السوية والصحة النفسية السليمة •

— أن « الشعور الاجتماعى » — أى التوحد مع الآخرين — مؤشر للشخصية السوية •

— أن الشخص « المحقق لذاته » يتميز بشخصية سوية ، ويقصد بتحقيق الذات عملية تحقيق القوى الكامنة الفطرية فى الشخص •

— أن الخلق والابداع أساس للسلوك السوى •

(د) ان النموذج الذى رسمناه للشخصية السوية لا يعنى أن نتصور هذه الشخصية فى سعادة دائمة ، أو أنها الشخصية الخالية من الخوف أو الصراع أو القلق •• ان الخوف ظاهرة صحية من الناحية الدينية • فهل لنا من « شىء من الخوف » حتى لا نطغى أو ننسى

أنفسنا . ولقد ورد ذكر « الخوف » فى مواضع عديدة من القرآن الكريم :

« **ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد** » (ابراهيم : ١٤) .

« **ولمن خاف مقام ربه جنتان** » (الرحمن : ٤٦) .

« **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى** » (النازعات : ٤٠ ، ٤١) .

« **انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** » (الأعراف : ٥٩) .

« **لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى أخاف الله رب العالمين** » (المائدة : ٢٨) .

« **قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم** » (الأنعام : ١٥) .

« **.. انى أخاف الله ، والله شديد العقاب** » (الأنفال : ٤٨) .

« **ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد** » (غافر : ٣٢) .

« **.. انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط** » .. (هود : ٨٤)

« **قال لا تخافا ، اننى معكما أسمع وأرى** » (طه : ٤٦) .

أما عن الصراع والقلق ، فانها جزء من حياة الانسان فى يومه وغده .. اننا نعانى الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين الحلال والحرام .. أى بين الاقدام والاحجام . أما القلق فانه ينتابنا بين لحظة وأخرى .. ويختلف القلق عن الخوف من ثلاث نواح : الأولى هى أن الخوف استجابة انفعالية لخطر خارجى محدد ، أما القلق فيمكن أن نسميه الخوف من المجهول . والناحية الثانية هى أنه بالرغم من أن كلا من الخوف والقلق حالات توقعية ، أى أنها تشير الى خطر محدق ، الا أن مثيرات القلق تأتى من الداخل أى من الكائن نفسه وليس من خطر خارجى كما فى حالة الخوف ..

والناحية الثالثة هى أن الألم الذى يتوسط فى اكتساب القلق ناتج عن عملية عقاب اجتماعية ، يوقعها عادة الأبوان أو من يقوم مقامهما .

« ان الانسان خلق هلوعا » (المعارج : ١٩) .

« لقد خلقنا الانسان فى كبد » (البلد : ٤) .

« اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » ..
(المعارج : ٢٠ ، ٢١)

* * *

الفصل الخامس

خاتمة

وبعد ...

لقد قمنا بجولة فكرية فى مملكة النفس البشرية التى قال عنها « أفلاطون » : « هنا دولة النفس البشرية ، لندخل اليها كى نتعرف الى بعض فئات أبنائها ، فان ابادة الداء بدواء الحكمة لخير من التنكيل بالنفس المريضة » .. وغصنا فى أعماقها كى نخرج بمبادىء علمية نفسية قامت عليها دراسة النفس البشرية .. وذلك فى رحاب الدين الاسلامى الحنيف ، على هدى من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام .

ان الطريق الصحيح الصالح لعلاج النفس الانسانية هو مصارحتها بحقيقتها وكشف ظنونها وأوهامها وتبصيرها بما يجب أن تسلكه . فهناك أفعال وتصرفات خاطئة عليها أن تتجنبها وتعترض عليها ، وأن تدفعها بعيدا عنها ، فتتوقف عن اتباع كل ما يخالف القيم الأخلاقية والمثل العليا التى أمرت باتباعها ، والتى أراد الله للنفس أن تتحلى بها سلوكا وأخلاقا وغاية ..

عليها اذن أن تنتهج سبيل الخلاص .. وذلك بالاستقامة وأعمال البر والصبر على الابتلاء ، والخوف من الله ، والتوكل عليه فى السراء والضراء .. فاذا اعترضت النفس على الأفعال الخبيثة ، فان ذلك يدخل فى باب المجاهدة حيث تتجنب الأهواء وتبتعد عن مهاوى الضلالة ، وتنبذ مسالك الأنانية والشرور ..

وهنا ترتقى النفس وتتسامى .. لأن حالها الدائم هو الندم على ما اقترفته من الآثام والشرور ، فتدأب على البعد عن المخالفات ، وتنشغل باللوم عند اقتراف السيئات ، حتى يصبح هذا الحال ملازما لها ثابتا لديها ، بمثابة مقام لها ومنزلة تنزل بها — فضلا من الله ومنة — وهنا تسمى النفس « نفسا لوامة » ..

واذا صدقت هذه النفس وكانت عاملة عابدة لله ، واستمرت فى المجاهدة ولم تتقاعس عن الرياضة النفسية ، وأمست المحاسبة طبعها الدائم ، وخلقها الثابت ، فتتمسك بالقيم العليا من خير واحسان ، وبر وفضيلة .. فتستحق أن تلقب « بالنفس الطائعة » ، الطيعة لله ، التى تنشد الخير الفاضل ، والسبيل الأهدى ، فهى تعترض كلية على ما هو شر ، وتقبل أبدا على كل ما هو خير . فتلهم بالصالحات من الأعمال ، حتى تحظى بالدرجات العليا بفضل الله ، وتثبت فى مقـام « النفس الملهمة » ..

فاذا واصلت النفس رحلتها فى الخير وأعمال البر والاحسان ، أصبح هذا الحال ظاهرها وباطنها .. فكرها وعملها ، استقرت فى مقام السكينة .. فلا ترى غير الفضيلة مبدأ ، ولا تختار غير الخير بديلا .. فأمنها مع الحق ، وأملها فيه تعالى .. وهنا تسمى — بفضل الله — « النفس المطمئنة » ..

والنفس التى تمضى فى سياحتها الروحية خالصة لله ، متوكلة عليه ، راضية بما ترتزق به من خير وشر ، تجاهد جهاد الأبطال ، وتعمل عمل الأبرار ، وترضى بما أعطاها الله من نعم ، غير معترضة على ما يختبرها به من امتحانات وابتلاءات ، متوكلة عليه تعالى أبدا .. هذه النفس يرضى الله عنها ، فتكون نفسا حبيبة الى الله ، متمتعة بالكمالات الأخلاقية ، تحظى بالمقامات العليا التى يحظى بها المؤمنون(١) ..

ويمكن أن نصنف النفس البشرية الى ما يأتى :

١ — النفس المطمئنة :

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضيـة مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى » (الفجر : ٢٧ — ٣٠) .

٢ — النفس اللوامة :

« ولا أقسم بالنفس اللوامة » (القيامة : ٢) .

---

(١) حسن محمد الشرقاوى ، **نحو علم نفس اسلامى** . ص ٤٧ — ٤٨ .

٣ ــ النفس الزكية :

« **قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس** » (الكهف : ٧٤) .

٤ ــ النفس المجادلة :

« **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها** » (النحل : ١١١) .

٥ ــ النفس الملهمة :

« **ونفس وما سواهــا . فألهمها فجورها وتقواها** » .
(الشمس : ٧ ، ٨)

٦ ــ النفس الأمارة بالسوء :

« **وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء** » (يوسف : ٥٣) .

٧ ــ النفس المهتدية :

« **فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه** » (يونس : ١٠٨) .

٨ ــ النفس المجاهدة :

« **ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ، ان الله لغنى عن العالمين** » .
(العنكبوت : ٦)

٩ ــ النفس الشاكرة :

« **ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان الله غنى حميد** » .
(لقمان : ١٢)

١٠ ــ النفس الصالحة :

« **من عمــل صالحا فلنفســه ومن أســاء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** » .
(فصلت : ٤٦)

١١ ــ النفس الشحيحة :

« **ومن يوق شح نفســه فاولئــك هم المفلحــون** » ..
(الحشر : ٩ ، التغابن : ١٦)

١٢ ــ النفس الخيرة :

« **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** » (البقرة : ٢٧٢) .

وفى سبيل الشعور الباطنى والوجدان النفسى ، يرشدنا القرآن ويسترعى أنظارنا الى حقيقة نفسية واقعية ، تعبر عن قبس الايمـان بوجـود الخالق ووحدانيته ، وعن فطرية الشـعور الدينى فى نفس الانسان .. وتتمثل فى ذلك الاحساس الداخلى الذى يحسه الانسان من نفسه حينما يتحرر من سلطان الوهم والهوى ، ويتفلت من حكم المـادة المظلمة ، أو عندما يفاجأ بالسؤال عن مصدر هذا الكون ، أو عندما تنزل به شدة تحيط به ، ولا يرى فيما يقع حسه طريقا للخلاص منها(١) .
وفى سبيل ذلك يقول القرآن الكريم :

*** « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليـم »** (الزخرف : ٩) .

*** « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض »** (فصلت : ٥١) .

*** « واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور »** .
(لقمان : ٣٢)

والعقائد الأساسية التى طلب الاسلام الايمان بها ، وكانت العنصر الأول من عناصره هى :

أولا : وجود الله ووحدانيته ، وتفرده بالخلق والتدبير والتصرف ، وتنزهه عن المشاركة فى العزة والسلطان ، والمماثلة فى الذات والصفات ، وتفرده باسـتحقاق العبادة والتقديس ، والاتجـاه اليه بالاسـتعانة والخضوع .. فلا خالق غيره ، ولا مدبر غيره ، ولا يماثله شىء سواه ..

*** « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد »** (سورة الاخلاص) .

*** « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم**

---

(١) محمود شلتوت ، **الاسلام عقيـدة وشريعة** . (القاهـــرة : دار الشروق ، ١٩٧٥) . ص ٢٣ .

ولا يطعم ، قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين» (الأنعام : ١٤) •

*** «قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين • لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين • قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ••»** (الأنعام : ١٦٢ — ١٦٤) •

ثانيا : ان الله يصطفى من عباده من يشاء ، ويحمله رسالته عن طريق ملائكته ووحيه الى خلقه • ثم يبعثه اليهم رسولا يبلغهم ، ويدعوهم الى الايمان والعمل الصالح • ومن هنا وجب الايمان بجميع رسله الذين قصهم علينا ••

ثالثا : الايمان بالملائكة « سفراء الوحى بين الله ورسله » وبالكتب السماوية « رسالات الله الى خلقه » •

رابعا : الايمان بما تضمنته هذه الرسالات من الدار الآخرة ، ومن أصول الشرائع والنظم التى ارتضاها الله لعباده ، مما يناسب استعدادهم ، وتقضى به مصالحهم ، على الوجه الذى يكونون به مظهرا حقا لعدله ورحمته وجلاله وحكمته (١) ••

كلف الله الانسان بهذه العقائد ، وجعل له مرتبة السيادة فى الكون والخلافة فى الأرض •• يعمرها وينميها ، ويعمل على اظهار رحمته ونعمته على عباده • وجاء النص القرآنى بأن الله كرم الانسان ، وفضله على كثير ممن خلق ، وخصه بعقل به كلفه ، وبه أرسل اليه الرسل • وقد عرض له فى القرآن صحائف الكون فى أرضه وسمائه ، مائه وهوائه ، ونباته وحيوانه ، وحثه على النظر والتفكير فيما خلق ، وتعرف أسراره فيه ، فيتخذ منها ما يقوى ايمانه ، كما يتخذ منها وسائل رقيه فى الحياة المادية ، التى تكون برقيها عزته وسعادته •• وبذلك جمع له بين حظى الجسم والروح ، وجعل حياته الكاملة فى استيفائه متعة المعرفة واليقين ، ومتعة المادة والعمل(٢) ••

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧ — ١٨ •

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٧ •

« **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** » (البقرة : ٢٩) .

« **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** » (لقمان : ٢٠) .

« **علم الانسان ما لم يعلم** » (العلق : ٥) .

« **يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه** » ..
(الانشقاق : ٦)

والاسلام يقرر أن الله خلق الانسان مستعدا لأن يسعد نفسه بالخير أو يشقيها بالشر .. والخير هو ما ينفعه وينفع جماعته فى الدنيا ، ويرضى الله عنه فى الآخرة ، والشر هو ما يؤذيه فى حياته ويغضب الله عليه فى آخرته .. والانسان بذلك كان صالحا بعقله وعمله ومسلكه فى الحياة لدرجات القرب من الله ، ولدرجات البعد عنه . وما كانت هداية الوحى الا تقوية لجانب الخير فيه وللأخذ بيده من نزعات الطغيان والهوى الى ما قدر له من كمال فى دنياه وأخراه ..

« **وهديناه النجدين** » (البلد : ١٠) .

« **انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا** » (الانسان : ٣) .

« **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » (النحل : ٩٧) .

هذا هو وضع الانسان فى نظر الاسلام ، وهو وضع يدل دلالة واضحة على أن الاسلام يرى أن الانسان ذو حرية واختيار فى حياته .. فهو يفعل الخير مختارا فيثاب ، ويفعل الشر مختارا فيعاقب . وبتلك الحرية ، وهذا الاختيار ، كلفه الله وأرسل اليه الرسل لتهديه وترشده ، ثم تركه يختار لنفسه من مسلك الخير أو الشر ، لا يدفعه بقوة خارجة عن نفسه الى خير أو شر .. ولو شاء ذلك لخلقه بطبيعة الخير فلا يعرف شرا ، أو بطبيعة الشر فلا يعرف خيرا .. وعندئذ لا يكون هو الانسان الذى جعله خليفة فى الأرض ، وكلفه بدينه وشرائعه ، وأعد له الثواب والعقاب . ولكن خلقه مختارا فى أفعاله ، وبذلك يكون جزاؤه فى يوم الدين تبعا لما يختاره لنفسه فى الحياة ، يكون صورة من اللذة والألم ، مساوية لما حملت نفسه من بواعث الخير ، وبواعث الشر ..

« **هل يجزون الا ما كانوا يعملون** » (الأعراف : ١٤٧) ٠

« **ونفس وما سواها ٠ فألهمها فجورها وتقواها ٠ قد أفلح من زكاها ٠ وقد خاب من دساها** » (الشمس : ٧ — ١٠) ٠

« **وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون** » ٠٠ (البقرة : ٢٧٢)

« **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** » (آل عمران : ٣٠)

« **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير** » (آل عمران : ١٠٤)

« **وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما** » (النساء : ١٢٧)

« **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء** » ٠ (الأعراف : ١٨٨)

« **لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط** »٠ (فصلت : ٤٩)

« **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٠ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » ٠ (الزلزلة : ٧ ، ٨)

والقرآن ملىء بمثل هذه النصوص الدالة على أن الانسان مختار فى فعله ، ليس مقهورا ولا مجبورا على خير أو شر ٠٠



وبعد ...

لقد حاول الكاتب ــ من خلال سطور هذا الكتاب ــ أن ينفذ الى أعماق النفس البشرية ، متتبعا نشأتها وتطورها وخصائصها وسلوكها .. وقد بدأ هذه الدراسة من منطلق أساسى ، هو القرآن الكريم ، الذى أبرزت آياته خلق الانسان ، ونشأته ، وتطوره ، وصفاته ، وسلوكه ، كما أراد له الخالق سبحانه وتعالى .. كما استند أيضا الى الأحاديث النبوية الشريفة فى هذا المجال . فالقرآن الكريم هو الأصل والمنبع فى كل ما يتعلق بخلق الانسان وفطرته وصفاته وسلوكه وأخلاقياته .

ومن هذا المنطلق انتقل الكاتب الى ابراز المفاهيم النفسية التى وردت فى الآيات الكريمة أو تفسيرها أو فى الأحاديث النبوية الشريفة ، ثم عرض وجهات نظر علماء النفس بالنسبة لهذه المفاهيم ..

والمغزى أن القرآن الكريم ــ الذى جمع فأوعى ــ يتحدى كل القوى المختارة التى ميزها الله بقدرة العقل والفكر والاختيار .. ومن هنا نجد أن العلم الحديث ــ بقدر ما حقق من تقدم لا يزال قاصرا عن فهم مكنونات النفس البشرية التى خلقها الله سبحانه وأودع فيها ما شاءت قدرته من صفات وعقل وفكر ، وسخر لها ما فى السموات والأرض ..

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء : ٨٥) .

(صدق الله العظيم)

* * *



المراجـــع

أولا : المراجع العربيـــــة :

١ – القرآن الكريم .

٢ – أبو حامد الغزالى : **احيـاء علوم الدين** . القاهرة : الحلبى ، ١٩٥٧ .

٣ – أحمد زكى صالح : **التعـلم : أسسه ونظرياته** . القاهرة : مكتبـة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .

٤ – أنور الجندى : **مفاهيم العلوم الاجتماعية : النفس والأخلاق فى ضـوء الاسلام** . القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٧ .

٥ – توماس هوبكنز : **النفس المنبثقة فى المدرسة والبيت** . ترجمة محمد على العريان . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .

٦ – جون كلوفر مونسما ، **الله يتجلى فى عصر العلم** . ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان (ط ٢) . القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦١ .

٧ – جيتس وآخـرون ، **علم النفس التربوى** . ترجمة باشراف عبد العزيز القوصى . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .

٨ – حامد عبد السـلام زهران : **التوجيه والارشاد النفسى** . القاهـرة : عالم الكتب ، ١٩٧٧ .

٩ – حسن محمد الشرقاوى : **نحو علم نفس اسلامى** . الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .

١٠ – ديوبولد فان دالين : **مناهج البحث فى التربية وعلم النفس** . ترجمة باشراف سيد أحمد عثمان ، (ط ٢) القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

١١ – رمزية الغريب : **سيكولوجية التعلم** (ط ٢) . القاهرة : مكتبـة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٩ .

١٢ – سيد أحمد عثمان ، وفؤاد عبد اللطيف أبو حطب : **التفكير : دراسـات نفسية** (ط ٢) . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨ .

١٣ – سيد عبد الحميد مرسى : **الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى** . القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٦ .

١٤ ـ سيد عبد الحميد مرسى : **سيكولوجية المهن** (ط ٤) • القاهرة : العلية للنشر ، ١٩٧٧ •

١٥ ـ سيد عبد الحميد مرسى : **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتـاج** • القاهرة : العالمية للنشر ، ١٩٧٨ •

١٦ ـ سيد عبد الحميد مرسى : **علم النفس والكفاية الانتاجية** • القاهرة • مكتبة وهبة ، ١٩٨١ •

١٧ ـ سيد قطب : **الاسلام ومشكلات الحضارة** • القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢ •

١٨ ـ سيد قطب : **فى ظلال القرآن** (٦ أجزاء) ، ط ٨ • القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٩ •

١٩ ـ سيدنى جورارد : **الشخصية بين الصحة والمرض** • ترجمة حسن الفقى وسيد خير الله • القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٣ •

٢٠ ـ عائشة عبد الرحمن : **القرآن وقضايا العصر** • بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٢ •

٢١ ـ عباس محمود العقاد : **الانســان فى القـرآن** • بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٦٩ •

٢٢ ـ عبد الرزاق نوفل : **الله والعلم الحديث** • القاهرة : مكتبة صايغ ، بدون تاريخ •

٢٣ ـ عبد العزيز القوصى : **أسس الصحة النفسية** (ط ٩) • القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٩ •

٢٤ ـ عبد الكريم العثمان : **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص** (ط ٢) • القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١ •

٢٥ ـ عز الدين بليق : **منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبيـاء والمرسلين** • بيروت : دار الفتح ، ١٩٧٨ •

٢٦ ـ كالفن هول ، وجاردنر لندزى : **نظريات الشخصية** • ترجمة فرج أحمد فرج ، وقدرى محمود حفنى ، ولطفى محمد فطيم • القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر • ١٩٧١ •

٢٧ ـ كريسى موريسون : **العلم يدعو للايمـان** (ط ٥) • القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥ •

٢٨ ـ محمد البهى : **القرآن الكريم يقول** • القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩ •

٢٩ ـ محمد عماد الدين اسماعيل : **الشخصية والعلاج النفسى** • القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ •

٣٠ ـ محمد متولى الشعراوى : **١٧ قضية فى ميزان الاسلام** • القاهرة : المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٧٧ •

٣١ ـ محمد متولى الشعراوى : **معجزة القرآن** • القاهرة : كتاب اليوم ١٩٧٧ •

٣٢ ـ محمد على الصابونى : **مختصر تفسير ابن كثير** • بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٣٩٣هـ •

٣٣ ـ محمود شلتوت : **الاسلام عقيدة وشريعة** • القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٥ .

٣٤ ـ مصطفى فهمى : **علم النفس : أصوله وتطبيقاته التربوية** • القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٥ .

٣٥ ـ هـ • أوفر ستريت : **العقل الناضج** • ترجمة عبد العزيز القوصى والسيد محمد عثمان • القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ •

٣٦ ـ ويلارد أولسون : **تطور نمو الأطفال** • ترجمة باشراف عبد العزيز القوصى • القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٦٢ •

٣٧ ـ يوسف مراد : **مبادىء علم النفس العام** (ط ٣) • القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧ •

ثانيا ــ المراجع الأجنبية :

1 — Adler, A., **Understanding Human Nature**. New York : Greenberg, 1929.

2 — Cattell, R., **Personality : A Systematic Theoretical and Factual Study** . New York : Mc. Graw — Hill, 1950.

3 — Dollard, J., and Miller, N. ; **Personality and Psychotherapy**. New York : Mc. Graw — Hill, 1950.

4 — Fromm, E. ; **Man for Himself : An Inquiry into the Psychology of Ethics**. New York : Rinehart, 1947.

5 — Guilford, J. ; **The Nature of Human Intelligence**. New York : Mc. Graw — Hill, 1967.

6 — Hilgard, E., et. al. ; **Introduction to Psychology** (6th. ed.). New York : Harcourt Brace, 1975.

7 — Horney, K. ; **Neurosis and Human Growth**. New York : Norton, 1950.

8 — Kluckhohn, C., and Murray, H. (eds.) ; **Personality in Nature, Culture, and Society,** New York : Knopf, 1953,

9 — Maslow, A. ; **Motivation and Personality**. New York : Harper, 1954.

10 — Mullahy, P. (ed.) ; **A Study of Intorpersonal Relations**. New York : Hermitage Press, 1949.

11 — Rank, O. ; **Will Therapy, and Truth, and Reality**. New York : Knopf, 1945.

12 — Rogers, C. ; **Client — Centered Therapy : Its Current practice, Implications, and Theory,** Chicago : Houghton — Mifflin, 1951.

13 — Rogers, C. ; **Psychotherapy and Personality Change**. New York : The Basic Books, 1954.

14 — Snygg, D., and Combs, A. ; **Individual Behavior : A New Frame of Reference for Psychology**. New York : Harper 1949.

15 — Sullivan, H. ; **The Interpersonal Theory of Psychiatry**, New York : Norton, 1953.

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الرابع : السلوك الانسانى
(٨٦ – ١١١)

الفصل الخامس : خاتمة
(١١٢)

كتب للمؤلف

١ ـ علم النفس والكفاية الانتاجية ٠

٢ ـ التوجيه المهنى لذوى العاهات ٠

٣ ـ انسانية الاشتراكية العربية ٠

٤ ـ سلسة دراسات نفسية اسلامية ٠

تصدر تباعا ٠٠ الجزء الأول منها : « النفس البشرية » ٠

٥ ـ كيف تدير المناقشة (ترجمة) ٠

٦ ـ كيف تعلم الكبار (ترجمة) ٠

رقم الايداع : ١٥٣٦ / ١٩٨٢

الترقيم الدولى : ٧ — ٣٧ — ٧٣٣٥ — ٩٧٧

مطابع دار التراث العربي
ت ٩٣٦١٤٥ - القاهرة